الاسْتدعاءاتُ القُرْآنِيَّةُ فى شعرِ البُخْلِ فى العصرِ العبَّاسِى

د. طه على خليفة أحمد (*)

التوطئة:

إن المطلع على كتب التراث النقدية ككتاب الموازنة للآمدى، والإبانة عن سرقات المتنبى للعميدى، والكشف عن مساوئ المتنبى للصاحب بن عباد، والوساطة للجرجانى، يجد إشارات واضحة لاستدعاءات الشعراء القدامى، يمكن أن نطلق عليها ظاهرة تداخل النصوص، والتأثير بين النص النثرى والنص الشعرى، ومن ذلك التأثر بأفكار القرآن الكريم ومعانيه وألفاظه، والتى وضحت جليَّة فى نصوص الشعراء.

وقد عالج القدامى هذه الظاهرة تحت مسميات عديدة، كالتضمين والاقتباس والإشارة والتلميح والسرقة، وكلها مسميات قريبة من المصطلح الحداثى"التناص"، لكن الجرجانى كان أكثر هؤلاء وضوحا وشمولية عندما ابتعد عن اتهام الشعراء بالسرقة، حيث قال: "ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا، ثم العصر الذى بعدنا أقرب إلى المعذرة، وأبعد عن المذمة، لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق إليها، وأتى على معظمها، ومتى أجهد أحد نفسه، وأعمل فكره، وأتعب خاطره فى تحصيل المعنى يظنه غريبا مبتدعا، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه، ولهذا السبب أحظر على نفسى، ولا أرى لغيرى بث الحكم على شاعر بالسرقة"([1]).

وعملية استدعاء النص تقوم على ركنين أساسيين، هما: النص والقارئ؛ لأن الاستدعاء يعتمد على قوة ذاكرة القارئ وفطنته فى التعامل مع النص، فالشاعر لا يشير إلى الجزء المستدعى مطلقا، "وهذا يتطلب من القارئ التأويل وما فوق التأويل، ليشكل هو نصا جديدا.....يتطلب التفاعل العميق مع النصوص المستدعاه للإفادة منها"([2]).

(*) كلية التربية فى الغردقة- جامعة جنوب الوادى

[1]- القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى: الوساطة بين المتنبى وخصومه، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم، على محمد البجاوى، ط/ دار القلم- بيروت(د.ت)، ص ٢١٥.

[2] - محمد الزواهرة: التناص فى الشعر العربى المعاصر، ط/ عمان، سنة ٢٠٠٠، ص ٣٦.

ويعد القرآن الكريم بالنسبة للشعراء ينبوعا ثرّا وغنيا بالأعلاق النفيسة فى الاستعانة به للتعبير عن المواقف والآراء فى قصائدهم، فمنه استدعوا الآيات والألفاظ والمعانى فى إيحاءاتهم الشعرية، لتوصيل دلالاتهم للقارئ، وتكثيفها من خلال انتقائهم للآيات التى تتناسب وطبيعة القصيدة المتوافقة والجو النفسى للشاعر، للتعبير عن مواقف موازية، أو تناقض الموروث، والاستدعاء يمد القصيدة بالتكثيف الدلالى الذى يريده الشاعر، وآلياته "يجب أن تكون مندمجة ومتفاعلة مع بنية النص بمستوياته المختلفة وفقا لدلالته الكلية، فالشاعر يملك آليات استدعاء متعددة يتخير منها ما يتلاءم مع بنية النص، بحيث يكون لآلية الاستدعاء نفسها دور دلالى داخل السياق"([1])، واللجوء إلى القرآن الكريم يفجر –عادة- لدى الشعراء طاقات دلالية وإبداعية جديدة، الأمر الذى يعزز لديهم بناء الرؤى الشعرية، فالتفاعل مع هذه الكتب المقدسة باقتباس نصوصها يمنح الشاعر بناء نصه الجديد، وهذا ليس مجرد اقتباس للنص القرآنى، أو لتزيين القصيدة به، فهدف الشاعر هنا هو استيعاب النص وتطويعه([2]).

وقد لفت نظر الباحث أن كثيرا من شعراء العصر العباسى استلهم من التراث القرآنى، واستدعى الشخصيات القرآنية فى حديثه عن البخل، ووظف ذلك الاستدعاء توظيفا جميلا قويا، اعتمد فيه على معين القرآن الكريم الذى لا ينضب، مما أضفى على أبياته طابع القداسة والصدق- لو صح التعبير- فالشاعر أحيانا يستدعى مباشرة ألفاظا واضحة جليَّة من القرآن الكريم، يضمنها أبياته كما هى، وأحيانا أخرى يستدعى الصورة أو المعنى المراد من الآية، وهو ما يمكن أن نسميه الاستدعاء غير المباشر، وقد ينهج نهج القرآن فى أسلوبه القصصى الممتع، ومقصده من كل ذلك الكشف عن حقائق، ووقائع زائفة تتستر خلفها شخصية البخيل، فهو بذلك يعمد إلى كشف الزيف بطريقة هجائية ساخرة، واختياره للتوظيف القرآنى فيه "رجوع من الشاعر إلى جذوره، فضلا عما يسمو النص القرآنى بشعر الشاعر وزيادة دلالته وجمالياته"([3]).

---

[1] - على عشرى زايد: استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر، ط/ دار غريب – القاهرة، سنة ٢٠٠٥، ص ٢٠.

[2] - محمد الزواهرة: التناص فى الشعر العربى المعاصر، ص ٨٣.

[3] - د.جمعة حسين يوسف: المضامين التراثية فى الشعر الأندلسى فى عهد المرابطين والموحدين، ط/ دار الصفاء- عمان، سنة ٢٠١٢، ص ٦٤.

أما ظاهرة البخل فى العصر العباسى، فقد انتشرت حتى صارت من الأمراض الاجتماعية الشائعة فى هذا المجتمع، وكثر الحديث عن البخل والبخلاء، فألف الجاحظ كتابه(البخلاء)، والخطيب البغدادى –أيضا- كتابا يحمل نفس الاسم (البخلاء)، وهذا دليل على انتشارها، وهو ما دفع الكثير من الشعراء والكُتَّاب للحديث عنها، ولعل ما حل بهذا المجتمع من تغيير فى تركيبه وثقافاته، وعاداته وتقاليده، وامتزاج العرب بغير العرب، وتحولهم من البدوية إلى المدنية، بما فيها من تعقيد، ونزعة إلى التخلى عن عادات العرب الأصيلة، كالكرم والجود، والبذل والعطاء، إلخ.....من الأسباب التى أدت إلى تفشى هذه الظاهرة، والتى أدت بدورها إلى ظهور شعر البخل، فالملاحظ "هو ما صارت إليه الحياة الاجتماعية من تعقد مشتبك النواحى، فأصبحت متعددة الوجوه، كثيرة المطالب، وفارقتها تلك البساطة، التى كانت ما تزال غالبة على المجتمع الإسلامى من قبل، وبذلك صار المال ميزان الرجال، .....وجعل الناس يتكالبون على المال، يتوسلون إليه بشتى الوسائل: لا يعفّون عن محرم، ولا يتورعون عن خبيث، ولا يعبأون أن يتخذوا من المعانى الكريمة أسبابا يخادعون بها؛ حرصا عليه؛ وإجلالا له، حتى أصبحت مظاهر الدين شركا من شراكه"([1]).

كما كان لتعدد الأحزاب فى هذا العصر، ونشأة الخلافات بين تلك الأحزاب، ومحاولة كل حزب تشويه صورة الآخر، دور فى ظهور هذا النوع من الشعر، فكثيرا– على سبيل المثال- ما كان يرمى الشعراء العباسيون حكام بنى أمية بالبخل والتقتير، مما يثير التندر والسخرية منهم، إقلالا لشأنهم، وإرضاء لخلفاء بنى العباس.

ومن هذه التغيرات التى لحقت العصر العباسى، نشوء الطبقات، خاصة نشوء "طبقة التُجار الأثرياء فى البصرة وبغداد....وهذه الطبقة هى بطبيعتها، أكثر الناس تقديرا للمال، وأشدهم مغالاة به، وحرصا عليه، مع اختلاف أفرادها فى هذا.....، والناظر فى كتاب البخلاء، يرى أن معظم الشخصيات التى رسمها الجاحظ هم من هذه الطبقة، التى استطاع أن يكشف كثيرا من خفياتها ودقائقها،

١ - الجاحظ: البخلاء، ت: د. طه الحاجرى، ط٥/ دار المعارف، (د.ت)، المقدمة، ص ٣٥.

وأن يعبر تعبيرا دقيقا واضحا، عما يخالجها من مشاعر قلقة مضطربة بين المال وإيثاره، والحرص عليه، والمغالاة به..."([1]).

فالمال الكثير أول ما يُشعر، يُشعر بالقوة والدفء، والاستغناء عن الناس، فيظل الإنسان يبحث عن المال؛ تحقيقا لذلك، وقد لفتت هذه الظاهرة انتباه الجاحظ فى كتابه البخلاء، فهو يتحدث عن رجل من ذوى الأموال المكتنزة، أنه كان يسرَّه أن يُقال عنه بخيل، لأن ذلك يوحى ضمنيا أنه يملك مالا، وأنه سيكون بماله فوق الناس([2]).

صار إذن رأس المال، والقوة الاقتصادية علامات بارزة فى هذا المجتمع، وهذا ولَّد بدوره تصادما بين هذه الطبقة التى كان معظمها يبخل بماله، وبين الطبقات الاجتماعية الأخرى، وكان منهم -لا شك- الشعراء، الذين صوروا ذلك فى أبيات رائعة مضحكة.

أيضا لا نغفل ضعف الوازع الدينى، وتوفر أسباب الراحة، واتساع أوقات الفراغ، وليونة العيش، كل ذلك دفع الشعراء إلى التندر بعيوب المجتمع ومثالبه، وما شاع فيه من لواط وأبْنةٍ ورشوة، وقد صاغوا كل ذلك فى شعر مقذع مضحك، يغريك بالضحك من التصوير، قبل أن يغريك بالاشفاق على من قيل فيه([3]).

كل هذه التغييرات كانت من أسباب انتشار هذه الظاهرة فى العصر العباسى، حتى إن الجاحظ نفسه ربما كان بخيلا، كما يرى الأستاذان: على الجارم وأحمد العوامرى([4])، "ويعتمد القائلون بهذا على بعض نظريات علم النفس التى تقرر أن هناك ارتباطا عاطفيا يوجد بين المؤلفين والموضوعات التى يكتبون عنها"([5])، إضافة إلى ما سبق، فإن هناك دوافع شخصية أخرى دفعت هؤلاء الشعراء إلى التندر من البخل، فمنهم من كان ساخطا على النظام السياسى،

---

[1] - الجاحظ: البخلاء، ص ٣٦.

٢ - السابق، ص ٣٦.

٣ - د. عبدالمنعم خفاجى: الأدب العربى وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى، ط/ دار الجيل-بيروت، سنة ١٩٩٠، ص ٢١٣.

[4] - الجاحظ: مقدمة كتاب البخلاء، ص ٣٦ .

٥- د. حامد طاهر: ظاهرة البخل عند الجاحظ" دراسة نصية"، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، السنة الخامسة، العدد التاسع، سنة ٢٠٠٩م، ص ٢٠٣.

كدعبل الشاعر، ومنهم من كان ساخطا على النظام الاجتماعى للمجتمع العباسى، كأبى نواس، ومنهم من كان يحمل حقدا وحسدا بداخله للإسلام والمسلمين، كبشار بن برد، ومنهم المتزندق والفاسق الذى أكثر من نفث سمومه فى أفراد المجتمع، متخذا ذلك التهكم نهجا فكريا.

ولكون البخل من الأمراض الاجتماعية البارزة، فإن ذلك لم يكن بعيدا عن تسخير هذه الظاهرة فى الشعر، وإلصاقها من قبل الشعراء بكثير من رجال هذا العصر، فتندر كثير منهم بهؤلاء البخلاء، ورسموا صورا لهم تثير الضحك، واستدعوا لذلك الكلمات والآيات القرآنية التى تخدم المعنى، وضمنوها نصوصهم الأدبية، وكان الشعراء أمثال: دعبل والحمدونى وجحظة وابن الرومى وأبى الشمقمق وأبى تمام وأبى العلاء وغيرهم، من هؤلاء الشعراء الذين تندروا فى شعرهم عن البخلاء، ورسموا لهم صورا ساخرة، ولوحات فنية تصويرية رائعة، تثير الضحك.

وعلى الرغم من وفرة الإنتاج الشعرى الذى تحدث عن البخل والبخلاء فى تلك الفترة، بيد أن معظم ما نراه كان حديثا عن أخبارهم وأحوالهم، بطريقة كاريكاتورية، كما نجد فى كتاب البخلاء للجاحظ، أو كتاب البخلاء للبغدادى، لكن أحدا- فى حد علمى- لا يكاد يجد دراسة تخصصت فى استدعاء الشعراء العباسيين للتراث القرآنى فى حديثهم عن البخل والبخلاء، ولعل هذا ما يقوِّى تلك الدراسة.

ولهذا السبب، وما تم عرضه سابقا، تولدت فكرة هذا البحث، الذى سيدرس ظاهرة الاستدعاء القرآنى فى شعر البخل، واقتصرت الدراسة على شعراء العصر العباسى، وركزت أكثر على الذين اشتهروا بالهجاء والسخرية فى شعرهم؛ لوفرة الاستشهادات التى تحتاجها الدراسة.

وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفى التحليلى من خلال استبطان النصوص الشعرية التى تتحدث عن البخل، واستنطاقها عن طريق رصد ما تهدف إليه، وفك بنائها اللغوى والتركيبى؛ بغية الكشف عن سماتها الدلالية، وتفسير إشاراتها، وقد قام البحث بالإجراءات التالية:

١- تتبع الاستدعاءات القرآنية فى شعر البخل فى العصر العباسى، ورصدها ووصفها وتحليلها.

٢- سبرأغوار الدلالات والإيحاءات والرموز العميقة التى تستوعبها ظاهرة الاستدعاءات.

٣- الكشف عن مدى ملاءمة النصوص القرآنية المستدعاة لسياق النص الأدبى، وتناسبها معه.

وهناك العديد من الدراسات التى تحدثت عن استدعاءات الشعراء للنصوص، والعديد من الدراسات الى تحدثت عن البخل والسخرية منه بصفة عامة، بدءًا من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث، لكن -فى حد علمى- لا توجد دراسة متخصصة تربط بين التراث القرآنى، وشعر البخل فى هذا العصر.

ومن هذه الدراسات السابقة – على سبيل المثال لا الحصر- ما يلى:

١- ظاهرة البخل عند الجاحظ" دراسة نصية": د. حامد طاهر، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، السنة الخامسة، العدد التاسع، سنة ٢٠٠٩م.

٢- السخرية فى الشعر العباسى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين: عبدالخالق عودة، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا- جامعة الأردن، سنة ٢٠٠٣م، وهى رسالة منشورة على شبكة الإنترنت، وفيها فصل عن السخرية من البخل والبخلاء.

٣- أثر القرآن الكريم فى شعر الزهد فى العصر العباسى الأول: هالة فاروق فرج، رسالة ماجستير منشورة- العراق، سنة ٢٠٠٣.

وقد تشكل هذا البحث من توطئة، تضمنت الاستدعاء القرآنى وأهمية توظيفه فى النص، ثم شيوع ظاهرة البخل، وسببها فى هذا العصر، ودوافع اختيار هذه الدراسة، وقد قسمتُ الدراسة إلى مبحثين، درس المبحث الأول: الاستدعاء المباشر، سواء كان استدعاء آية كاملة أو بعض آية أو لفظة واحدة، ودرس المبحث الثانى: الاستدعاء غير المباشر، كالمعنى والفكرة والإيحاء وغيرها، ثم الخاتمة التى تتضمن أهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة، ثم ثبت بالمصادر والمراجع، ثم الفهرست.

والله ولى التوفيق،،،

المبحث الأول: الاستدعاء المباشر من القرآن الكريم:

أولا: استدعاء آية أو بعض آية:

قد يلجأ الشاعر فى أحايين كثيرة إلى التندر والسخرية من الصفات المنبوذة فى مهجوه، وعندما لا يكون قادرا على إظهار غضبه لسبب ما، تصبح السخرية متنفسا طبيعيا له، حتى صار التندر بأشكاله من أبرز ملامح التحول الشعرى عند شعراء العصر العباسى، لأن الصدام بين هؤلاء الشعراء، ومجتمعاتهم، وتقاليد الحياة فى عصرهم وصل إلى حد الرفض والإنكار والثورة أحيانا([1])، ثم إن ضيق حياة كثير من هؤلاء الشعراء دفعهم إلى التطلع إلى ما فى أيدى الأغنياء، وأصحاب الثروات، وطلب رفدهم وعطائهم، وكثير منهم ارتدَّ خائبا، وأصيب بخيبة أمل، فعبروا عن هذا السخط، وهذا الرفض بالهجاء الساخر، خاصة من مظاهر البخل بشتى صوره وأشكاله، وأكثروا من ملاحقة البخلاء، وتصوير ما يظهر من تصرفاتهم، وما تخفيه مشاعرهم وأحاسيسهم، ويحاول الشعراء إظهار صفة البخل فى مهجوهم، وإعلانها للجميع فى جوٍ من المرح النفسى، والسعادة التى تجذب القارئ، والذى بدوره يريد معرفة تصرفات هذا البخيل المضحكة، ولأجل أن يضفى الشاعر جمالا ورونقا على أبياته -فوق كل ذلك- يستدعى الشاعر بعض آيات ومعانى القرآن الكريم التى تلاءم الموقف، دون تغيير فى معنى الآية، فيقوم بعملية الاستدعاء المباشر التى تقوم على وعى من الشاعر، بحيث يتم فيها امتصاص وتحويل النصوص فى أتون التفاعل النصى الجديد، ويعمد فيه الشاعر أحيانا إلى استحضار نصوص بلغتها ونصها كالآيات القرآنية والحديث النبوى.([2])

ولعل أول من سنلتقى بهم من شعراء هذا العصر، الشاعر العباسى الهجَّاء الساخر إسماعيل بن إبراهيم الحمدونى، الذى أكثر من المقطوعات الشعرية([3])،

---

١ - محمد زكى العشماوى: موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى،ط/ دار النهضة العربية – بيروت، سنة ١٩٨١، ص ١٢٨.

٢- محمد الجعافرة: التناص والتلقى"دراسات فى الشعر العباسى"، ط/ الأردن، سنة ٢٠٠٣، ص ١٥.

٣ - عمل الحمدونى مائتى مقطوعة فى طيلسان ابن حرب، وصل منها ثلاث وثلاثون، انظر: الثعالبى: ثمار القلوب، ت: محمد إبراهيم، ط دار المعارف،سنة ١٩٨٥، ص ٦٠٢.

التى يتندر فيها من بخلاء عصره، سيما صديقه ابن حرب([1])، الذى أهداه طيلسانا- ضرب من الثياب الفارسية- قديما متهرئا، وسعيد بن سلم- والى أرمينية وواصل والسند- الذى أهداه شاة عجفاء، فجعل الحمدونى من الطيلسان والشاة حديث عصره، وأكثر فيهما من المقطوعات الساخرة([2])، حتى صارتا وبالا على أصحابهما، ومن ذلك فى حديثه عن الطيلسان الذى أهدى إليه، وقد استدعى في هذه المقطوعة أكثر من آية من القرآن الكريم تناسب سياق حديثه الساخر.

يقول:

طَيْلسانٌ لابْنِ حَرْب جاءَني خِلعَة "في يَوْم نحْس مُسْتمِرْ"
فإذا ما صِحْتُ فيهِ صَيْحَة تَرَكتْهُ " كهَشيم المُحْتظِرْ"
وَإذا ما الرّيحُ هَبَّتْ نحْوَهُ طيَّرَتْهُ " كالجَرادِ المُنتشِرْ"
مُهْطِعُ الدّاعي إلى الرّافي إذا ما رَآهُ قالَ: " ذا شَيءٌ نكر"
وَإذا رؤفاوُهُ حاوَلَ أنْ يَتلافاهُ "تعاطى فعَقر"([3])

يسخر الحمدونى فى هذه الأبيات من الطيلسان الذى أهداه إليه صديقه ابن حرب، فى صورة مضحكة، معتبرا أن هذا اليوم الذى أهداه فيه إليه، هو يوم شؤم دائم لا ينقطع؛ لما جلبه عليه هذا الطيلسان من مصائب عديدة، وفقر مدقع، وكأنه أهدى إليه همًّا وغمًّا، لا طيلسانا يلبس، وقد استدعى لذلك الآية القرآنية:" إنَّا أَرْسَلنا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْم نحْسٍ مُّسْتمِرٍّ"([4])، ثم إن هذا الطيلسان قديم خلق مهترئ، يشبهه الشاعر بالزرع اليابس، الذى يُجعل حِظارًا على الإبل والمواشى، وبهذا فهو لا فائدة فيه، ولا يصلح للارتداء، كما لا يصلح الزرع اليابس لأكل البهائم، وقد استحضر الشاعر قول الله تعالى:" إنَّا أَرْسَلنا عَلَيْهِمْ صَيْحَة وَاحِدَة فكانوا كهَشِيم المُحْتظِرِ"([5])، ومن خفة هذا الطيلسان،

---

[1] - أحد رجالات عصره، وكان عمه يزيد المهلبى، ويسمى: أحمد بن حرب، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان،ت: د.إحسان عباس، ط/ دار صادر-بيروت، سنة ١٩٧١، ٧/ ٩٥.

[2] - جمع هذه المقطعات د نعمان محمد أمين ضمن كتابه: السخرية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، ط/ دار التوفيقية- القاهرة، (د.ت).

[3] - د. نعمان محمد أمين: السخرية فى الأدب العربى، ص ٢٦٦.

[4] - سورة القمر، آية (١٩).

[5] - سورة القمر، آية(٣١).

وسوء صنعته، وتناثر خيوطه فى الهواء، إذا هبت الريح عليه، صار كأنه جراد منتشر فى الآفاق، وواضح الاستدعاء القرآنى هنا من قول الله:" يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتشِر"([1])، وإذا ما أراد صاحبه إصلاحه، ذهب به عند الرفاء، ذليلا، خافضا بصره، قد أصابه الحياء، من قدم هذا الطيلسان، حتى إن الرفاء إذا رآه تعجب، وكأنه رأى شيئا منكرا، والبيت متضمن من قول الله تعالى:"مهْطِعِينَ إلى الدَّاع"([2])، وأيضا من قول الله تعالى:" فتوَلَّ عَنهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاع إلى شَيْءٍ نُّكُرٍ"([3])، وإن اجتهد الرفاء فى إصلاحه وترميمه، واجتهد أن يتناوله بيده، لا يتحمل الطيلسان التقليب أثناء إصلاحه، حتى يكاد يهلك فى يده، وكأنه بهيمة عُقرت، وقد استدعى هذا من قول الله تعالى:" نَادَوْا صَاحِبَهُمْ فتعَاطى فعَقرَ"([4]) .

وكان التشبيه هنا من أهم أدوات الشاعر فى إبراز صورته الساخرة، وتشبيه الطيلسان تارة بالهشيم المحتظر، وتارة بالجراد المنتشر، والمبالغة هنا فى عرض الصورة أمر مقصود من الشاعر، زيادة فى التهكم والسخرية، إضافة إلى استدعاء بعض الآيات القرآنية كاملة بلفظها ومعناها، أضفت على تلك الصورة الساخرة قوة، وزادها جمالا وروعة وعكست قدرة الشاعر على حسن التوظيف.

ويبدو أن كثرة حديث الحمدونى عن طيلسان ابن حرب جعلت منه طيلسانا مشهورا، بما ألفه فيه من مقطوعات هزلية ساخرة، تندر بها ظرفاء عصره، وقد أظل بعضها بظلال من القرآن الكريم كعادته، أضفت على الصورة مسحة من التأثير العميق فى النفس، ومن تلك المقطوعات التى ينادى عليه فيها، قوله:

أيا طيلسانى أعييتَ طبِّى ... أسلٌّ بجسمكَ؟ أم داءُ حبِّ؟
ويا ريح، صيرتنى أتقيك ... وقد كنت لا أتقى أن تهبى
ومستخبر خبرَ الطيلسان ... فقلت له: الروحُ من أمر ربِّى([5])

---

[1] - سورة القمر، آية (٧).
٢ - سورة القمر، آية(٨).
٣ - سورة القمر، آية(٦).
٤ - سورة القمر، آية(٢٩).
٥ - د. نعمان محمد أمين: السخرية فى الأدب العربى، ص ٢٦٣.

صورة خيالية مبتكرة، إذ جعل الحمدونى من طيلسانه إنسانا يحس ويألم، بل وقد يعشق أحيانا، وقد أصابه مرض شديد أنحف جسمه، لذا فهو يسأله مباشرة: أداء السل الذى سبب لك هذا؟، أم هو داء الحب؟! وقديما كان لا يخشى البرد، أما الآن وبعد ارتداء هذا الطيلسان الخفيف، صار يملؤه الخوف والفزع من هبوب الريح، حتى لا يصيبه البرد، ولغرابة هذا الطيلسان فلا أحد يعرف كنهه، ولا يستطيع أن يجب هو أحدا يسأله عنه، فهو كالروح لا يعلم أمرها سوى الله، والاستدعاء واضح هنا من قول الله:" وَيَسألونكَ عَنِ الرّوح قل الرّوحُ مِن أمرِ رَبّي"(١)، ومن ذلك قوله أيضا فى الطيلسان:

قــل لابــن حــربٍ طيلســا نــكَ قــومَ نــوح منــه أحــدث
يــودى إذا لــم أرْفــهِ وإذا رفــوت فلــيس يلبــث
كالكلــبِ إن تحمــلّ عليــ ــه الــدهر أو تتركــه يلهــث(٢)

فالطيلسان لقدمه وتهرئه، فهو أقدم من قوم سيدنا نوح – عليه السلام- ولا يتحمل الرفى، وإن رُفى انتهى أمره، وهو يشبهه بالكلب وما فيه من حقارة وخسة، فصفة البخل التى في مهجوه، تشبه صفة الخسة والضعة فى الكلب، وهى دوام اللهث، سواء حملت عليه، أو طردته خارجا، فهو هنا لا يكتفى بتشبيهه بالكلب، بل يختار حالة معينة يتميز بها الكلب، وهى أنه يلهث دائما، سواء تحمَّل جهدا أو لم يتحمَّل، وهو منظر قبيح فى الكلب، وقبحه أنه لا يمكن أن نعلم سببه، فهو طبع فيه، والاستدعاء من قول الله:" فمَثلهُ كمَثل الكلبِ إن تحمِل عَليهِ يَلهَث أو تترُكهُ يَلهَث"(٣).

ويبدو أن الحمدونى قد عمد -أيضا- إلى جعل طيلسان ابن حرب أداة يفضح بها أمر صاحبه، فنراه كثيرا ما يعمد إلى وصفه بأوصاف شتى، وبطرق مختلفة، كلها يقصد بها التندر والسخرية، بغرض إثارة ضحكات الناس من هذا البخيل، كاشفا بخله، ودناءة نفسه أمامهم، والحمدونى فى أوصافه وحديثه عن الطيلسان، يعمد إلى تكرار الصور فى كثير من الأحيان، ويأتى ببعض الطرائف

١- سورة الإسراء: آية(٨٥).
٢ - د. نعمان محمد أمين: السخرية فى الأدب العربى، ص ٢٦٣.
٣- سورة الأعراف، آية (١٧٦).

الجديدة فى أحيان أخرى، مضمنا تلك الأوصاف باستدعاءات قرآنية صريحة، ففى مقطوعة يسخر فيها من هذا الطيلسان الذى تهرَّأ من قدمه حتى صار عبرة لمن يعتبر، حتى تحول لونه الأبيض إلى اللون الأسود من كثرة الصدأ الذى تجمع من الأبر التى يرفوه بها.

يقول:

فيما كسانيهُ ابْنُ حَرْب مُعْتبر فانظر إلَيْهِ إنَّهُ إحْدى الكُبَرْ
قدْ كانَ أبْيَضَ ثمّ ما زلنا بهِ نرْفوهُ، حَتى اسْوَدَّ مِنْ صَدَأ الإبَر(١)

فالاستدعاء هنا من قول الله تعالى:" إنَّهَا لإحْدَى الكُبَرِ"(٢)، وهو استدعاء مناسب، على ما فيه من مبالغة، وقد عمد فيه الشاعر إلى تكرار الأصوات بهدف توليد النغم الموسيقى، الذى يأخذ بالأسماع، وحرص على التوزيع الموسيقى داخل النص، كفنان موسيقى محترف، مما أكسب الأبيات حلاوة وطلاوة.

ويستخدم الحمدونى أحيانا الأسلوب القصصى الذى من خلاله يرسم صورة مضحكة لمهجوه البخيل، ولا يخفى ما فى الأسلوب القصصى من تشويق وتمثيل يجذب النفس، ويبعدها عن الرتابة والملل، ويدفعها إلى التلهف لتتبع الأحداث، إضافة إلى ما يحمله الأسلوب القصصى من متعة وطرافة، وكثيرا ما يعمد الحمدونى إلى ذلك، يقول:

يا ابْنَ حَرْب أطلت فقري بَرَفوي طيْلسانا قدْ كنت عَنهُ غنِيّا
هُوَ في الرَّفو آلَ فِرْعَوْنَ في العَر ض عَلى النار بُكْرَة وَعَشِيّا
زُرْتُ فيهِ مَعاشِرا فازْدَروني فتغنَّيتُ إذ رَأوْني زَرِيّا
جِئْتُ في زيِّ سائِلَ كيْ أراكُمْ وَعَلى البابِ قَدْ وَقفت مَلِيّا(٣)

فالشاعر فى تلك المقطوعة يصوِّر فى أسلوب قصصى طيلسان ابن حرب الذى نقله من الغنى إلى الفقر، وأضاع وقته وعمره فى رفوه، فلا يمر عليه يوم دون أن يعرض على الرفاء صباحا ومساء، وعند ارتدائه يزدريه الناس ويحتقرونه، ويبدو فيه كأنه شحاذ يسأل الناس، ويقف أمام دورهم حتى يعطونه،

١ - د. نعمان محمد أمين: السخرية فى الأدب العربى، ص ٢٦٥.
٢ - سورة المدثر، آية(٣٥-٣٦).
٣ - د. نعمان محمد أمين: السخرية فى الأدب العربى، ص ٢٦٧.

وقد استدعى فى صورته تلك بعض ألفاظ القرآن الكريم، إذ شبه عرض طيلسانه على الإبرة لرفوه صباح مساء، بعرض آل فرعون على النار بكرة وعشيا، كما ورد فى قول الله تعالى:" وَحَاقَ بآل فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذابِ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا"(١)، كما نجده قد استدعى لفظة (مليا) من القرآن الكريم، من قول الله تعالى:" وَاهجُرني مَلِيًّا"(٢)، وقد جاءت معظم نداءات الشاعر لابن حرب، تحمل من السخرية والتهكم والغضب ما تحمل، والبلاغيون يقولون:" إن استخدام حرف النداء"يا" الذى وضع لنداء البعيد، يكون من قبيل تنزيل القريب مكانا، منزلة البعيد؛ لأغراض منها التهكم بالمنادى والإشارة إلى انحطاط شأنه، وهوان قدره ومنزلته، أو لكونه بليدا لا يسمع ولا ينتبه(٣)، وهذا ما قصده الحمدونى.

وكعادة الشاعر فى الإكثار من الصور الفنية فى مقطوعاته، نراه حريصا على استخدام الاستعارة والكناية فى حديثه عن طيلسان ابن حرب، يقول:

يا ابْنَ حَرْبٍ كسَوْتني طيْلسانا أمرضتْه الأوجاعُ فهو سقيمَ
فإذا ما رَفوْتهُ قالَ سُبْحانكَ مُحْيي العِظامَ وَهْيَ رَميمَ(٤)

فقد استعمل الشاعر الاستعارة المكنية فى إضفاء صفات الإنسان على الطيلسان، فكما شبهه سابقا بإنسان يعشق ويمرض، فقد شبهه هنا بإنسان يتألم ويتوجع ويتكلم، فطيلسانه إنسان به كل صفات البشر، ومما زاد من جمال الصورة وعمق تأثيرها فى نفس المتلقى، تكثيف الاستدعاءات القرآنية، فى هذين البيتين، فقد استدعى أكثر من آية من القرآن الكريم كعادته، أما الأولى: فمن حديث الله سبحانه عن نبيه يونس– عليه السلام- حيث يقول:" فنبَذْناهُ بالعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ"(٥)، أما الاستدعاء الثانى: فمن قول الله تعالى: " قالوا سُبْحَانكَ لا عِلمَ لنا إلَا مَا عَلَّمْتنا(٦)، أما الاستدعاء الثالث: فمن قوله سبحانه:"

١ - سورة غافر، آية (٤٥-٤٦).
٢ - سورة مريم، آية (٤٦).
٣ - السيوطى: عقود الجمان فى المعانى والبيان، ط٢/ مطبعة البابى الحلبى-القاهرة ،(د.ت)، ج١، ص١٩٦-١٩٧.
٤- د. نعمان محمد أمين: السخرية فى الأدب العربى، ص ٢٦٩.
٥- سورة الصافات، آية(١٤٥).
٦- سورة البقرة، آية (٣٢).

وَضَرَبَ لنا مَثَلا وَنسِيَ خلقهُ قالَ مَن يُحْيي العِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ"([1]).

وكما صور لنا الحمدونى قدم طيلسان ابن حرب، وأنه قد أكل عليه الدهر وشرب، يصور لنا أيضا شاة سعيد بن سلم، بأسلوب يعتمد على اللغة الهازلة، والمبالغة فى تصوير الشاة، وأنها عجفاء هزيلة ضعيفة، دائمة الاستغاثة، وتسقط دموعها فرحا إذا رأت علفا-كما ورد فى باقى القصيدة- وقد أكثر الشاعر من مثل هذا التهكم حتى صيَّر شاة سعيد وبالا عليه، وكعادته فإنه يكثر من استدعاء آيات من كتاب الله يضمنها شعره، فابن سعيد ينادى من وراء الحجرات -كما فعل شاعر بنى تميم فى مناداته على النبى صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات-بصوت صاخب، ليُعْلم الناسَ بأضحيته، وهى شاته العجفاء، ليس فيها سوى جلدٍ، يكسى عظامًا نخرة، يقول الحمدونى:

صاحَ بى ابنُ سعيدٍ من وراءِ الحجراتِ
قرَّب الناس الأضاحى فأنا قربت شاتى
شاة سوءٍ من جلودٍ وعظام نخراتِ
كلما قدمتها للـ ـذبح، قالت: وحياتى![2]

وقد تأثر الحمدونى فى هذه المقطوعة، ومعظم مقطوعاته بالواقع الاجتماعى الجديد، بما حدث فيه من تغيير، انعكس على كل شئ حتى على الشعر، فأكثروا من النظم على مجزوءات البحور، وعلى إحياء بعض الأوزان المهملة كالمضارع والمقتضب، وميلهم إلى هذه الأوزان القصيرة، ونجد ذلك واضحا عند الشاعر، كتلك المقطوعة السابقة على مجزوء الرمل، وكما نلحظ فى الأبيات أن الشاعر استعمل ألفاظا متداولة بين العامة، (وحياتى)، وعلى الرغم من أن ذلك يخل بشروط الفصاحة، لكن عبدالقاهر الجرجانى، ينسب قولا إلى الصاحب، أنه يستعمل فى الهجاء"....وذكر أنه يستعمل فى الهجاء.....ولا شبه فى ثقل ذلك فى الأكثر، ولكنه إذا سلم من الاستكراه لطف وملح([3])"، والاستدعاء فى الأبيات من

١- سورة يس، آية(٧٨).
٢ - د. نعمان محمد أمين: السخرية فى الأدب العربى، ص٢٥٩.
[3] - عبدالقاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ت: محمد محمود شاكر،ط٢/ مكتبة الخانجى- القاهرة(د.ت)، ص ١٠٤.

قول الله تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ"([1])، ومن قول الله تعالى:" أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً"([2]).

ومن قوله فى شاة سعيد أيضا:

شاةُ سعيدٍ فى أمرها عبرُ لمَّا أتتنا قد مسَّها الضررُ([3])

والاستدعاء من قول الله على لسان أيوب:" وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"([4]).

وفى أسلوب هزلى قريب من هذا يصور الشاعر الحمدونى بخل ابن نوح- أحد رجال عصره- الشديد، فرغيفه فى حضنه دائما، يمسحه ويربت عليه، فهو يشبهه بالطفل الصغير المدلل، الذى جلب له والداه مربية تمسحه وتعتنى به، ولا يكتفى بذلك، بل يحيط رغيفه بالتعاويذ والتمائم، خوفا من أن يصيبه مكروه ما، أو يعتدى عليه أحد غيره فيأكله، يقول فى ذلك:

لأبى نوح رَغيفٌ أبَدا فِي حُضْن دايَه
بُرّة تمْسَحُهُ الدَّهـ رَ بكَمّ وَوقايَه
وَتعاويذ عَلَيْهِ خطّ فيها بعِنايَه
فسَيَكْفيكهُمُ اللـ هُ إلى آخِر الآيَة([5])

وهى صورة ساخرة أظهر فيها الحمدونى براعة عالية فى تصويره بخل ابن نوح الشديد، وفى المقطوعة استدعاء من قول الله تعالى:" وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّـهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"([6])، ونلحظ فى تلك المقطوعة وغيرها من التى تحدثت عن البخل، أن لغتها سهلة واضحة، لا غموض فيها ولا تعقيد، ويتجنب الشعراء الحوشى من اللفظ؛ حتى يسهل حفظها، وتداولها بين الناس، وفى أحايين تتضمن الأبيات مفردات متداولة بين الناس؛ لأن المقطوعة موجهة للعامة، كقول الحمدونى فى الأبيات السابقة: "إلى آخر الآية"، وهذه

١ - سورة الحجرات، آية(٤).
٢ - سورة النازعات، آية(١١).
٣- د. نعمان محمد أمين: السخرية فى الأدب العربى، ص ٢٦٤.
٤ - سورة الأنبياء، آية(٨٣).
٥ - الخطيب البغدادى: البخلاء، ت: بسام عبدالوهاب الجابى،ط/ دار ابن حزم-لبنان، سنة ٢٠٠٠، ص ١٨٧-١٨٨.
٦ - سورة البقرة، آية (١٣٧).

عبارة متداولة بين العامة من الناس، وقد يكون فى مثل هذه الأبيات إصلاح لأخلاق المجتمع بطريقة غير مباشرة، ففى فن الهجاء إحصاء للعيوب والمثالب، فهو فى الظاهر هجاء، وفى الحقيقة إصلاح وتهذيب، وتقويم لكل إعوجاج فى المجتمع([1])، وفى ابن نوح هذا أورد البغدادى بيتا لأحد الشعراء، وقد استدعى الشاعر فيه قول الله فى آل فرعون:"النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا"([2])، يقول فيه:

يجوعُ ضيفُ أبى نو ح بكرة وعشيًّا([3])

أما أبو تمام فمن يطلع على ديوانه يلحظ كثرة استدعاءاته القرآنية، لكن معظمها جاء فى مدحياته، أو أوصافه، أما أهاجيه فى البخل فلم أعثر إلا على أبيات قليلة جدا، ومن ذلك ما ورد فى قصيدة له فى رجل يسمى أبوسعيد محمد بن يوسف- وهو أحد رجالات عصره- وذلك حين خرج من عمورية إلى مكة، وقد ضمن القصيدة بيتين يعرض فيهما بالبخل تعريضا دون أن يذكر مباشرة أن صاحبه كان بخيلا، وجعل عدم نواله للعطاء من استعجاله هو وسوء تقديره، لا من بخل صاحبه، وهو ذكاء من أبى تمام، يقول:

قَدْ كانَ وعدكَ لى بحْرًا فصيَّرنى يومُ الزِّماع إلى الضحْضاح والوشَل

وبَيَّن الله هذا من بريَّتِه فى قوله:" خُلِقَ الإنسانُ منْ عَجَل"([4])

أى كان وعدك للعطاء الجزيل كالبحر الفياض، بيد أننى لم أنل كل ما قدرته وأملته من هذا العطاء، وحُرمت منه، لتقديرى واستعجالى فى طلب هذا العطاء الوفير، فهو هنا لم يشر مباشرة إلى بخل صاحبه، وواضح حضور النص القرآنى بقوة، من قول الله تعالى:" خُلِقَ الإنسانُ مِن عَجَل سَأريكُم آياتي فلا تستعجلونِ"([5]).

---

[1]- د. شوقى ضيف: فصول فى الشعر ونقده، ط٢/ دار المعارف، ص ٢٠.

٢ - سورة غافر، آية (٤٥-٤٦).

[3] - البغدادى: البخلاء، ص ١٨٨.

٤ - أبو تمام: الديوان بشرح الخطيب التبريزى، قدم له: راجى الأسمر،ط٢/ دار الكتاب العربى، العربى، بيروت، سنة ١٩٩٤، ج٢، ص ٤٤.

٥ - سورة، الأنبياء، آية(٣٧).

ونلتقى بالشاعر العباسى أبى الشمقمق([1])، الذى لا يقل عن الحمدونى فى تهكمه من بخلاء عصره، وفى قصيدة يهجو فيها سعيد بن سلم، الذى يبدو أنه كان مزحة عصره من شدة بخله، فقد تندر به كثير من الشعراء، وخلدوه فى قصائدهم، فهو هنا لا يبالى بالفقراء والمحتاجين، ولا يأبه بهم، ومهما حثثته على الجود والعطاء لهم، فهو لا يشعر بهم، وكأنك تضرب على حديد بارد، وقد أتى الشاعر بهذا المثل، وباسم الفعل" هيهيات"؛ ليدلل به على استحالة الأخذ منه شيئا، وأنه لابد من اليأس من عطاياه، ولشدة بخله يقسم أبو الشمقمق بذات الله، أن سعيدا لو يمتلك بحار الدنيا بأسرها، وجاءه أبوه "سلم"، يطلب منه القليل من الماء ليتوضأ به، لأبى وطلب منه أن يتيمم بالتراب، وهى صورة فيها مبالغة شديدة، لكنها تعكس بخل سعيد بن سلم الشديد، وفى ذلك يقول أبو الشمقمق:

هيهاتَ تضربُ فى حديدٍ باردٍ إن كنتَ تطمعُ فى نوال سعيدِ
واللهِ لَوْ مَلَكَ البِحارَ بأسْرِها وَأتاهُ سَلْمٌ فِي زَمان مُدودِ
يَبْغيهِ مِنها شَرْبَةً لِطهورِهِ لأبِى وَقالَ: تَيَمَّمَنْ بصَعيدِ([2])

فهو يفعل ذلك مع أبيه، وذلك فى حالة أن يمتلك بحار الدنيا بأسرها، فما بالنا لو طلب منه أحد آخر شيئا ما!!!!، وقد استدعى فى البيت الثالث من القرآن الكريم قول الله:" فلَمْ تجِدُوا مَاءً فتيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا"([3]).

ويحدثنا أبو الشمقمق عن ضيف سعيد بن سلم، فى أسلوب قصصى رائع، فبينما هو يسير، حتى إذا وصل إلى بيت سعيد بن سلم، وجد ضيفا عنده، والضيف يوشك أن يموت جوعا، وسعيد لا يأبه به، ليكتشف أن رغيف سعيد قد كُتبت عليه عبارة: "سيكفيكهم الله ما بدأ ضوء نجم"، أى أن الله سبحانه، سيكفيه هَمّ الأضياف ما طلعت النجوم، فالضيف سيتأمل فى ضوء النجم، ويتلهى بشكله الذى يشبه شكل الرغيف، ولا يفكر فى أكل، يقول الشاعر:

فانتهينا إلى سعيد بن سلم فإذا ضيفه من الجوع يرمى

---

[1] - هو مروان بن محمد، مولى مروان بن محمد، آخر خلفاء بنى أمية، نشأ فى البصرة، انظر مقدمة الديوان، تحقيق: واضح محمد الصمد، ط١/ دار الكتب العلمية – بيروت، سنة ١٩٩٥م، ص ١٣.

[2] - أبوالشمقمق: الديوان، ص ٣٧.

[3] - سورة النساء، آية(٤٣).

وإذا خبـــزه عليـــه سيكفيـــ كهُـمُ الله، مـا بـدا ضـوْءُ نجـم([1])

والاستدعاء هنا من قول الله تعالى:"وَّإن تولَّوْا فإنَّمَا هُمْ فِي شِقاقٍ فسَيَكْفِيكهُمُ اللَّـهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ([2])".

وقد أورد الخطيب البغدادى فى كتابه البخلاء قائلا:" أتى أبو الشمقمق باب رجل يمدحه، فأقام ببابه أربعا، فخرجتْ فى اليوم الرابع جارية تسقى ماء فى جرَّة، فكتب على جرَّتها:

آويـــتُ دِهلـــــيزكَ مـــذْ أرْبـــعٍ ولـــمّ أكـــنْ آوى الدهاليـــــزا

خبْـزى مـن السـوق، ومـدحى لكـمْ، تلـكَ لعمـرى قِسـمة ضـيزى([3])

ثم طلب منها أن تُقرئها سيدها، فالشاعر لما يأس من الرجل وعطائه، وقد مكث أمام بيته أربعة أيام يمدحه دون أن ينال شيئا، وهو لم يعتد على ذلك الاستجداء، إضافة إلى أنه يطعم بدراهمه من السوق، ولم يجد وسيلة للوصول إليه، استغل رؤيته لجاريته، فكتب على جرتها هاتين البيتين، عسى أن يقرأهما سيدها فيلين قلبه على أبى الشمقمق، وواضح استدعاء الشاعر من كتاب الله – سبحانه- قوله:" ألكُمُ الذّكرُ وَلهُ الأنثى، تِلكَ إذا قِسْمَة ضِيزى"([4]).

ونرى أبا الشمقمق فى موضع آخر من ديوانه يتساءل عن بخل أحد بخلاء عصره الذين التقى بهم، وكيف تسرَّب البخل إلى نفس صاحبه البخيل هذا؟، وكيف تعلمه؟، وكيف استبدل كرم العرب وجودهم الموروث إلى بخل شديد يصل إلى حد الغى؟!، ومن الذى علمه ألا يجود بشئ؟، يقول:

لمَّـــا ســـألتكَ شـــيئًا أبـدلتَ رُشـدًا بغـىٍّ

ممـــنْ تعلَّمـــتَ هـــذا أنْ لا تجُودَ بشئ([5])

وقد استدعى وقوله عز وجل: "لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ قد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغيِّ"([6])

---

[1] - أبو الشمقمق: الديوان، ص ٨٩.
[2] - سورة البقرة، آية (١٣٧).
[3] - البغدادى: البخلاء، ص ١٢٧.
[4] - سورة النجم: آية (١٢-٢٢).
[5] - أبو الشمقمق: الديوان، ص ٩٤.
[6] - سورة البقرة، آية(٢٥٦).

أما الشاعر ابن الرومى، فمعروف عنه أنه مطبوع على الهجاء والسخرية، فقد كان يطيل فى الهجاء ويفحش([1])، ويكره المجتمع بأسره، ودائم الحرص على النيل من الآخرين، مع حبه للتصوير الهزلي، وتضخيم عيوب المهجو، وتناوله من كل جوانبه، وكأن بيده آلة تصوير يسجل الشخصية من كل جوانبها، بيد أن استدعاءاته القرآنية فى شعر البخل، لا تتناسب مع الكم الهائل من هجاءاته، فالديوان بأكمله لا تكاد ترى إلا شيئا يسيرا من الاستدعاءات القرآنية فيه-مقارنة بهجاءاته- ومن ذلك ما ورد فى ديوانه وقد مدح أحد رجال عصره، فلم ينل منه شيئا، مما أشعره بالندم، فعدل عن مدحه إلى ذمه والتقليل من شأنه، فقال يهجوه:

لئن أخطأتُ فى مدحك ما أخطأتَ فى منعى
لقد أنزلتُ حاجاتى بوادٍ غير ذى زرع([2])

وقد استدعى ابن الرومى قصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام- مع زوجه هاجر، وابنه إسماعيل، كما وردت فى كتاب الله، وقد وظّف هذا الاستدعاء ليشبه مهجوه بوادٍ غير ذى زرع، أى لا رجاء منه، ولا نفع فيه، ويعلق ابن حجة الحموى على هذين البيتين قائلا:" فإن الشاعر كنَّى به عن الرجل الذى لا يرجى نفعه، والمراد فى الآية الكريمة أرض مكة شرفها الله وعظمها"([3])، وقد ورد هذا الاستدعاء من قول الله تعالى: "رَبَّنا إني أسكنتُ مِن ذُرِّيَّتي بوادٍ غيرِ ذي زَرع عِندَ بَيتِكَ المُحَرَّم"([4])، وهذه علاقة قوية ابتكرها ابن الرومى، وربط فيها بين الرجل البخيل وتشبيهه بوادٍ غير ذى زرع، وقد استثمر ابن الرومى النص القرآنى لينبه المتلقى، وكأنه يهزه هزا عنيفا عندما يحيله للآية،" وهذا التوظيف

[1] - ابن رشيق القيروانى: العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت: محمد محيى الدين عبدالحميد، ط/ دار الجيل- بيروت، سنة ١٩٧٢، ج٢، ص١٧٢.
[2] - ابن الرومى: الديوان، شرح: أحمد حسن بسج، ط/ دار الكتب العلمية- بيروت، (د.ت)، ج٣، ص ٣٩٤.
[3] - ابن حجة الحموى: خزانة الأدب وغاية الأرب، ت: عصام شعيتو، ط/ دار ومكتبة الهلال، سنة ١٩٨٧، ج٢، ص ٤٥٦.
[4] - سورة إبراهيم، آية(٣٧).

للنص القرآنى إفادة دلالية زادت من فنية النص بدون أن يعيد صياغة النص القرآنى أو تفكيكه من جديد"([1]).

وقد فتح ابن الرومى نيران هجائه المعتادة إلى أبى الفضل الهاشمى، يرجو نواله وعطاءه، لكن ذلك أبى وادَّعى القلة، ونصحه بالكفاف والعفاف، فقال فيه:

سألتك لا حَاجةً فاحْتجِرْ تَ منِّى وطالبْتنِى بالكفافِ
كأنّى سألتكَ قوتَ العِبَا دِ فى سنةِ البقراتِ العِجافِ

إلى أن يقول:

كأنّى سألتكَ حَبَّ القلو بِ ذاك الذى من وَراءِ الشَّغافِ([2])

والقصيدة طويلة فى الديوان يمزج فيها الشاعر بين العتب والهجاء، مصورا ما لحقه من ألم وإهانةٍ جراء طمعه فى نوال أبى الفضل الهاشمى، وما آلمه أكثر أنه مدحه محبة لا للحاجة، لكنه احتجب عنه، واعرض ثم توارى نهائيا، مطالبه بالعفاف والكفاف، وكأنه طلب منه قوت عباد الله أجمعين فى سنةٍ جدباء، كسنى يوسف، وكان كل ما طلبه قفيزين من حنطةٍ- كما ورد فى القصيدة- فكأنه يسأله مهجة قلبه، وفى نهاية الأمر أعطاه، لكن ما أعطاه كان ستين قفيزا من الإعراض والصد، وقد استدعى ابن الرومى قصة سيدنا يوسف –عليه السلام- وتفسيره لرؤية عزيز مصر، وقد أفلح فى هذا الاستدعاء وتوظيفه، مضفيا على قصيدته بهاءً، وقد جاء الاستدعاء من قول الله: " وَقالَ المَلِكُ إني أرى سَبعَ بَقراتٍ سِمانٍ يَأكُلُهُنَّ سَبعٌ عِجافٌ"([3])، وفى البيت الأخير استدعى ابن الرومى لفظة من ألفاظ كتاب الله، وهى: "الشغاف"، وذلك من قوله تعالى:" قد شَغَفها حُبًّا إنا لنراها في ضَلال مُبينٍ"([4])، والتوضيح فى عبارة "ذاك الذى من وراء"، تدل على شدة بخل صاحبه، وتأكيد ابن الرومى على ذلك.

وممن نلتقى بهم فى هذا المجال، بشار بن برد، إذ لما ضربه الخليفة المهدى، وبعث إلى منزله من يفتشه؛ لزندقته، وجد طومارا فيه: بسم الله

---

[1] - د. جمعة حسين يوسف: المضامين التراثية فى الشعر الأندلسى فى عهد المرابطين والموحدين، ص٥٣.
[2] - ابن الرومى: الديوان، ج٢،ص ٤٢٤.
[3] - سورة يوسف، آية(٤٣).
[4] - سورة يوسف، آية(٣٠).

الرحمن الرحيم، إنى أردت هجاء آل سليمان بن على لبخلهم، فذكرت قرابتهم من رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فأمسكت عنهم؛ إجلالا له، على أنى قلت:

دينـــارُ آل ســـليمانَ وَدِرْهَمُهُـــم كالبـــابِلِيَّيْنِ حُقـــا ◌ بـــالعَفاريتِ

لا يُوجَـدان وَلا يُرْجَـى نوالُهُمـا كمـا سَـمِعْتَ بهـاروتٍ ومـاروتِ(١)

وآل سليمان بن على، هم أبناء على بن عبدالله بن عباس، وقد رسم لهم الشاعر صورة ساخرة، كان فيها التشبيه من أهم أدواته، وقد أجاد بشار فى ذلك، فهو يصور شدة حرصهم على أموالهم بطريقة هزلية، فهى محاطة بالجن والعفاريت، لا يستطيع أحد أن يصل إليها، أو يرجو منها نوالا، فأموالهم كالملكين هاروت وماروت، اللذين وُجدا ببابل، فهما معروفان، لكن لا وجود لهما اليوم، ولا أثر، كذلك دنانيرهم ودراهمهم، تسمع عنها لكن لا ترى منها شيئا، وقد استدعى من القرآن الكريم قول الله تعالى عن الملكين هاروت وماروت:" وَمَا أنزِلَ عَلَى المَلَكيْنِ ببَابلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أحَدٍ حَتَّىٰ يَقولا إنَّمَا نحْنُ فِتْنة"(٢)، حتى يضفى على الصورة رونقا وجمالا.

وقد أورد الخطيب البغدادى أن بشار بن برد دخل على سعيد بن سلم الباهلى، فقال له: "إنى قد امتدحتك أعزك الله بقصيدة لم يقل مثلها عربى ولا عجمى، وإنى فيها لأشعر الناس"، ثم أنشده إياها، فقال سعيد: يا بشار! أراك تبجح فى شعرك، وقد جاءنى أعرابى منذ مدة، فمدحنى ببيتين لم أسمع أجود منهما، فأغفلت ثوابه فهجانى ببيتين لم أسمع أوجع منهما، فقال بشار: فما البيتان اللذان امتدحك بهما؟، فأنشده إياهما، ثم قال له: فما البيتان اللذان هجاك بهما؟ قال، قوله:

لكـــلَ أخِـــى مَـــدْح ثـــوابٌ يعـــدِّه ولـــيسَ لمـــدح البـــاهلىِّ ثـــوابُ

مـــدحتُ ســـعيدًا والمـــديحُ مهـــزَّة فكـــانَ كصـــفوانٍ عليـــهِ تُـــرابُ

فقال بشار: وهذا أشعرُ منى، ومن أبى وأمى(٣).

١- بشار بن برد: الديوان، تحقيق وتعليق: محمد الطاهر بن عاشور، ط/ وزارة الثقافة – الجزائر، سنة ٢٠٠٧م، ج٢، ص ٤٢.

٢ - سورة البقرة، آية(١٠٢).

٣- الخطيب البغدادى: البخلاء، ص ١٥٦.

وهو تشبيه جميل، شبه به الأعرابى سعيد سلم بالحجر الأملس الذى عليه تراب، فهطل عليه مطرٌ غزيرٌ فأزاح عنه التراب، فتركه أملس لا شئ عليه، ولا رجاء منه، فكذلك الأعرابى لا يجد ثوابا ولا عطاء من سعيد بن سلم على مدحه له، وقد استدعى الأعرابى شطرة بيته من قول الله تعالى:"فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا"([1]).

ومما أورده البغدادى أيضا، أنه قال:" أنشدنى أبو محمد عبد المحسن بن غالب الصورى لنفسه:

وأخ مَسَّــه نزولــى بقـــرْح مثلمـا مسَّـنى مـن الجـوع قـرحُ
بـتُّ ضـيفًا لـهُ كمـا حكـمَ الدَّهْـ ـرُ وفـى حكمـهِ علـى الحـرِّ قبْحُ([2])

فالشاعر يصف ما أصاب البخيل من ألم كأنه قتل أو جُرح، عندما نزل عليه الضيف، الذى كان جائعا أيضا بشدة حتى أوشك على الموت، وقد أضطر اضطرارا إلى النزول عنده، وأجبرته الأحداث، وحكمَ الدهر والأحداث لا راد لها إذا حكمت يوما على حر، وهو مستدعى من قول الله تعالى:" إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ"([3])، وقد مالت تلك المقطوعة إلى الأسلوب القصصى؛ لإيصال فكرته إلى الناس، والوصول إلى الغرض الذى يريده، من إثارة التهكم والسخرية، كما هو معرف من هدف القصة، وما تبعثه فى النفس من لذة، وتولد اللهفة لمعرفة الأحداث.

ومن بين الشعراء العباسيين الذين لا يغفلهم أحد، الشاعر دعبل الخزاعى، الذى يعد رائد السخرية السياسية فى العصر العباسى الأول([4])، والذى كان علويا، ساخطا على العباسيين، والسخط وحده ليس كافيا لأن يكون الشاعر هجَّاءً، بل لابد له من دقة الملاحظة، ولذع الأسلوب، وعبقرية الحس اللفظى، وبساطة التعبير، وبعده عن التكلف، والقرب من روح الشعب والواقعية([5])، وكل

---

[1] - سورة البقرة، آية(٢٦٤).
[2] - الخطيب البغدادى، البخلاء، ص ٩١.
[3] - سورة آل عمران، آية(١٤٠).
[4] - د.مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء فى العصر العباسى،ط/ دار العلم للملايين- بيروت، سنة ١٩٩٣، ص ٣٢٧.
[5] - محمد حسين: الهجاء والهجَّاءون فى العصر الجاهلى، ط/ دار النهضة العربية – بيروت، سنة ١٩٩٩، ص ٣٤.

ذلك نلحظه فى هجاءات دعبل الخزاعى، أما ظاهرة استدعاء النصوص القرآنية فهى جلية فى شعره على المستوى العام- لفظا ومعنى- فهو من الشعراء المتشيعين، الذين نقموا على الأوضاع السياسية فى عصره، وقد وظف الشاعر الاستدعاء القرآنى فى هجائه السياسى الساخر ضدهم توظيفا محكما، اشتمل على جوانب معنوية وحسية متعددة بطريقة هزلية، كتلك القصيدة التى قالها فى هجاء بنى العباس، وقد اختص منهم الخليفة العباسى المعتصم بالله، وقارنه بكلب أهل الكهف، بل كلب أهل الكهف أفضل منه، وكان الخليفة المعتصم يبغضه لطول لسانه، وينوى قتله غيلة، فقالها يهجوه([1]).

لكن الأبيات التى تتعلق بهجاء البخل والبخلاء عنده ليست كثيرة، نسوق منها ما ورد فى بنى وهب من هجاء حارق، وقد بخلوا عليه، ولم يرضونه، وقد استدعى الشاعر قصة سيدنا يوسف-عليه السلام- مع امرأة العزيز، وقد راودته عن نفسه، وقدت قميصه من دبر، هاجيا بنى وهب، فاستطاع أن يكّون صورة متشابكة الظلال والألوان، مستمدة من القرآن الكريم، يصل فيها بمهجوه إلى الحضيض، بصورة مبالغة، فيها غلو شديد، فقد سلب فيها رجولتهم، وغيرتهم، فنساؤهم يدعون للزنا، ورجالهم يدعون للواط، وقد اعتادوا على ذلك من صغرهم، وتبدو المبالغة الشديدة، التى لا يأبه بها الشاعر على ما فيها من رمى للمحصنات، فهدفه الأهم هو تشويه صورة مهجوه، وقد استدعى لرسم تلك الصورة قول الله تعالى:" "وَاستبَقَا البابَ وَقدَّت قميصَهُ مِن دُبُرٍ وَألفيا سَيِّدَها لدَى البابِ قالت ما جَزاءُ مَن أرادَ بأهلِكَ سوءًا إلا أن يُسجَنَ أو عَذابٌ أليمٌ، قالَ هِيَ راوَدَتني عَن نفسي وَشَهِدَ شاهِدٌ مِن أهلِها إن كانَ قميصُهُ قدَّ مِن قُبُل فصَدَقت وَهُوَ مِنَ الكاذِبينَ، وَإن كانَ قميصُهُ قدَّ مِن دُبُرٍ فكذَبَت وَهُوَ مِنَ الصّادِقينَ، فلمّا رَأى قميصَهُ قدَّ مِن دُبُرٍ قالَ إنَّهُ مِن كيدِكُنَّ إنَّ كيدَكُنَّ عَظيمٌ"([2]).

وفى ذلك يقول:

إذا رأيتَ بنى وهبٍ بمنزلةٍ ... لم تدْرِ أيُّهم الأنثى من الذكرِ
قميصُ أنثاهُمَ ينقضَّ من قبُل ... وقمصُ ذكرانهم تنقضَّ من دُبرِ

[1] - دعبل الخزاعى: الديوان، شرح وتعليق: حسن حمد، ط/ دار الكتاب العربى،(د. ت)، ص ٢٧.

[2] - سورة يوسف، آية(٢٥-٢٨).

محنَّكون على الفحشاءِ فى صغرٍ محنَّكون على الفحشاءِ فى كبرِ
محنَّكون ولم تُقطع تمائِمهم مع الفواطم والدَّاياتِ بالكبرِ([1])

أبيات فاحشة بذيئة لا يحتملها أحد، فلو كانوا أعطوه كل ما يملكون من أموال كان خيرا لهم من ذلك الهجاء الذى لازال يتلى إلى اليوم.

ومن جميل أوصاف الشاعر دعبل فى أحد البخلاء، وقد أخفى رغيفا عن الناس، حتى لا يسألونه، قوله:

إنَّ هَذا الفتى يَصونُ رَغِيفا ما إلَيْهِ لِناظِرٍ مِنْ لاسَبيل
هُوَ فِي سُفْرَتَيْنِ مِنْ أدَمِ الطا ئِفِ فِي سَلَّتَيْنِ فِي مِنْدِيل
خُتِمَتْ كلّ سَلَّةٍ برَصاصٍ وَسُيور خُقِدْنَ لمِنْ جلدِ فِيل
فِي جراب فِي جَوْفِ تابُوتِ مُوسى وَالمَفاتِيحُ عِنْدَ مِيكائيل([2])

وكالمبالغة التى اعتاد عليها الشاعر فى حديثه عن البخلاء، يرسم صورة مستحيلة لهذا الفتى البخيل الذى أخفى رغيفه عن الناس فى صرتين فى سلتين ختمتا بالرصاص، مربوطتان بسيور جلد قوية، مصنوعة من جلد فيل، فى جراب فى تابوت محكم الغلق كتابوت موسى، وفوق كل ذلك فمفاتيح هذا التابوت عند الملك ميكائيل، وكل ذلك فى صورة هزلية مضحكة، وقد استدعى لرسم تلك الصورة جزءا من قصة سيدنا موسى – عليه السلام- عندما أمر الله أمه أن تضعه فى التابوت، وتغلق عليه بإحكام، كما استدعى اسم "ميكائيل"، وهو ملك من الملائكة يستحيل الوصول إليه، ليؤكد استحالة الوصول إلى الرغيف، وهذا الاستدعاء من قول الله تعالى:" وَقالَ لهُمْ نبيُّهُمْ إنَّ آيَة مُلكِهِ أنْ يَأتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينة مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّة مِمَّا ترَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تحْمِلُهُ المَلائِكة إنَّ فِي ذلِكَ لآيَة لكُمْ إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ"([3]).

ويبدو أن الشاعر دعبل الخزاعى صار خبيرا بأنفس البخلاء وطبائعهم، من كثرة ما رأى العجب فى تعاملهم، فهو يرى أن بعضهم يظهر لك الود والحب، ويبدو لك أنه يحبك حبا شديدا، لا تقصير فيه ولا شك، لكن تظهر لك طباعه الحقيقية عندما تحتاجه، وتطلب منه مالا، ولو كان هذا المال الذى تطلبه منه

[1] - دعبل: الديوان، ص ٨١.
[2] - دعبل: الديوان، ص ١١٧.
[3] - سورة البقرة، آية (٢٤٨).

ربع فلس، فيتلمس لك الأعذار، ويحلف لك الأيمان، ويشهدك أن الله لطيف به، خبير بحاله، لا يملك شيئا، يقول:

وَمِنَ النَّاس مَنْ يحِبَّك حُبّا ظاهِرَ الوُدِّ لَيْسَ بالتَّقْصِيرِ
فإذا مَا سَألتهُ رُبْعَ فِلسٍ ألحَق الوُدَّ باللَطِيفِ الخَبِيرِ([1])

وهى صورة مكررة عند كل البخلاء، وفى كل العصور، وقد أفلح الشاعر فى وصفها بهذا الأسلوب الموجز، وزاد الاستدعاء القرآنى الصورة قوة، فقد استدعى الشاعر قول الله تعالى: "الا يَعْلَمُ مَنْ خلقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخبيرُ"([2]).

وقريبا من معنى أبيات دعبل السابقة أورد لنا البغدادى، أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا، قبيح البخل، حتى قيل فيه: لو ملك محمد بيتا من بغداد إلى النوبة مملوءا إبرًا، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبى- عليه السلام- يضمنون عنه إبرة، يسألونه إعارته إياها؛ ليخيط بها قميص يوسف الذى قدَّ من دبر، ما فعل، وأنشد فى ذلك:

لوْ أنَّ دارِكَ أنبتتْ لكَ فاحتشَّت إبرًا يضيقُ بها فِناءُ المنزل
وأتاكَ يوسفُ يستعيرك إبرة ليخيط قدَّ قميصِهِ لم تفعل([3])

لا أظن أن أحدا يقرأ هذين البيتين، ولا يغرق فى الضحك من تلك الصورة التى رسمها الشاعر لهذا البخيل، فالأبيات فيها غلو شديد، وسخرية لاذعة، فإن هذا البخيل قد وصل ببخله حدًا لا يضاهيه فيه أحد، بالرغم من أن الإبرة لن تنقص شيئا إن أعارها لسيدنا يوسف يخيط بها قميصه- على حد قوله- والاستدعاء هنا من سورة يوسف فى قول الله:" "وَاستبَقا البابَ وَقدَّت قميصَهُ مِن دُبُرٍ....."([4])، إلى آخر الآيات.

أما الأبيوردى فيرسم صورة لطيفة لأحد ممدوحيه، وقد أكثر من مدحه، لكنه ندم بعد ذلك لما رآه من بخل ممدوحه، الذى دبج فيه قصائد المديح، وبرر لنا ما فعله في من لا يستحق، أنه كان مسلوب الإرادة، وكأنه مسحور، حتى

[1] - دعبل: الديوان، ص ٨٠.
[2] - سورة الملك، آية(١٤).
[3] - البغدادى: البخلاء، ٩٥-٩٦.
[4] - سورة يوسف، آية (٢٥).

الناس حينما سمعوا مدائحه فيه، أدركوا أنه ساحر كذاب، استطاع أن يسحر الشاعر، ليقول فيه ما قال.

وفى ذلك يقول:

وقصائدٍ مثلُ الرياضِ أضعثها فى باخل ضاعتْ به الأحسابُ

فإذا تناشدها الرَّواة وأبصروا الممدوح، قالوا: ساحرٌ كذابٌ([1])

أسلوب سهل وألفاظ عذبة عفيفة، بها استطاع الشاعر أن يخلق مبررا لنفسه عندما مدح هذا الباخل، وقد استدعى قول الله تعالى:" وَعَجِبُوا أن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقالَ الكافِرُونَ هَذا سَاحِرٌ كذَّابٌ"([2]).

وقد أورد الحصرى بيتين لابن بسام تأثر فيهما بما ورد فى سورة الكهف من قصة ذلك الرجل الصالح فى دعائه على الرجل الذى كفر بربه، وظلم نفسه، ويتعجب منه لكفره بالله، ويقول له: إن ترانى أنا أقل منك مالا وولدا، فعسى ربى أن يعطينى خيرا منك، وحديقة أفضل من حديقتك، ويسلبك نعمتك وحديقتك الغنَّاء تلك التى أنت فيها، بأن يسلط عليها عذابا من السماء، فتصبح أرضك ملساء جرداء، لا نبت فيها ولا حياة، ولا تثبت عليها قدم، كذلك ابن بسام يدعو على دار أبيه البخيل -الذى يبخل حتى على ابنه- بأن يغرقها الله بسيل عرم، يدمرها تدميرا، ويموت هو وسطها غريقا، أو يرسل الله عليها عذابا، فتصبح ملساء جرداء، لا شئ فيها، ولا ينتفع بها، وفى ذلك يقول:

شِدْتَ دارا خِلتها مَكْرُمَة سَلَّط اللهَ عَلَيْها الغرَقا

وَأرانِيكَ صَريعا وَسْطها وَأرانِيها صَعِيدا زَلقا([3])

وقد استدعى قول الله تعالى:" فعَسى رَبّي أن يُؤتِيَنِ خيرًا مِن جَنَّتِكَ وَيُرسِلَ عَلَيها حُسبانًا مِنَ السَّماءِ فتُصبحَ صَعيدًا زَلَقًا"([4]).

---

[1] - عبد الرحيم بن أحمد العباسى: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ت: محمد محيى الدين عبدالحميد، ط/ عالم الكتب- بيروت(د.ت)، ج٤، ص ١٤٠.

[2] - سورة ص، آية(٤).

[3] - الحصرى: زهر الألباب، ت: زكى مبارك،ط/ دار الجيل- بيروت، ص٧٢٦.

[4] - سورة الكهف، آية (٤٠).

ومن الشعراء الذين نلتقى بهم فى هذا المضمار، البُسْتى([1])، وكان أكثر شعره فى الحكمة، التى يتكئ فيها على معين القرآن الكريم، والسنة الشريفة، ومما ورد له من أبيات، يخاطب فيها أحد البخلاء دون أن يصرح باسمه، قوله:

قُلْ للذى حرَّم بذل النَّدى وحلَّل الحرمان تحليلا
قَدْ مسنى الضرَّ، وقد حلّ بى ما ردَّ عقد الصَّبر محلولا([2])

فهو لا يصرح بصاحبه، بل يبعث له برسالة يلمح فيها بقصده علّه يفهم، فينزل صيبه على الشاعر، الذى مسه الضر من هذا الحرمان، وقد استدعى البُستى من كتاب الله تعالى قول سيدنا أيوب:" وَأيُّوبَ إذ نَادَى رَبَّهُ أنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأنتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"([3]).

****

ثانيا: استدعاء لفظة:

وكما قصد الشعراء إلى استدعاء آيات كاملة من القرآن الكريم، قصدوا أيضا إلى استدعاء اللفظة الواحدة؛ لتشكيل صورهم الشعرية، وكثيرا ما جاء هذا الاستدعاء فى إطار تدعيم المقارنة التى تقلل من قدر المهجو، وتنتقص حقه بطريقة هزلية ممتعة، واستدعاء اللفظة "يتصل بقدرة المبدع على اختيار ألفاظ بعينها، لا بحسب ما فيها من قيم صوتية، وإنما بحسب ما فيها من قيم دلالية، يمكن أن تمتد عند التركيب إلى غيرها من الدلالات الأخرى؛ لتصنع الإطار الدلالى المركب"([4]).

ولا يمكن أن نتقدم فى ذلك المبحث قدرا دون أن نلتقى الشاعر الحمدونى، الذى عوّدنا على رسم صوره الهزلية، فى حديثه عن طيلسان ابن حرب، أو شاة سعيد، وذلك فى بيتين يشير فيهما إلى قصة سيدنا موسى – عليه السلام- مع السامرى، ويربطها بالحديث عن طيلسانه الشهير، يقول:

---

[1] - هو: أبوالفتح على بن محمد بن الحسين بن يوسف البستى، ولد بمدينة بست، وهو شاعر عباسى ولد فى سنة (٣٦٠) هـ، انظر: مقدمة الديوان، ت: لطفى الصقال و درية الخطيب، ط/ مطبوعات مجمع اللغ العربية – دمشق، سنة ١٩٨٩م.

[2] - البستى: الديوان، ص ١٥٩.

٣ - سورة الأنبياء، آية(٨٣).

[4] - د. محمد عبدالمطلب: جدلية الإفراد والتركيب فى النقد العربى القديم، ط/ لونجمان – القاهرة، سنة ١٩٩٥، ص ١٠١.

طَيْلسَـــانٌ لابْـــن حَـــرْب جـــاءَني قـدْ قضـــى التَّمْزيـــقُ مِنـــهُ وَطـــرَه
أنـــا مِـــنْ خـــوْفي عَلَيْـــهِ أبـــدا "ســـامِرِيَّ" لَـــيْسَ يَـــألو حَـــذرَه([1])

فقد أهدى إليه الطيلسان، بعد أن قضى التمزيق منه حاجته، ولم تعد به قوة تتحمل أن يرتديه أحد، فهو خائف عليه خوف سامرى بنى إسرائيل من سيدنا موسى عليه السلام، بعد أن صنع لهم عجلا جسدا ليعبدوه، وهى صورة مبالغ فيها، كعادة الحمدونى فى حديثه عن طيلسان ابن حرب، بقصد السخرية والتهكم منه، ومن صاحبه ابن حرب، وقد استدعى الشاعر كلمتىّ:" السامرى ووطر"، من قول الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام:" قالَ فما خطبُكَ يا سامِرِيُّ"([2])، أيضا كلمة "وطر" التى وردت فى البيت الأول مستلهمة من قوله تعالى:" فلمَّا قضَى زَيْدٌ مِّنهَا وَطرًا"([3])، وقوله تعالى:" إذا قضَوْا مِنهُنَّ وَطرًا"([4]).

أما ابن الرومى الشاعر العباسى الهجَّاء فنراه فى قصيدة طويلة، يبشر فيها ضيف أحد بخلاء عصره بأجر الصيام غير المكتوب، أى صيام التطوع والنافلة، لأنه سيظل بلا طعام عنده، وفوق ذلك لو استطاع هذا البخيل أن يحبط هذا الأجر لاحتال فى ذلك، وسماح هذا البخيل لضيفه بالصوم ليس تفضلا منه وكرما، فهو يدرك أن صوم الإكراه لا أجر له، وكأن أجره عليه لا على ربه، ويبشر ابن الرومى هذا الضيف بسب هذا البخيل وشتمه، ولا خوف من ذلك، فليس فى شتمه كبير إثم، أو عظيم ذنب، قد يفسد الصوم.

يقول فى ذلك:

يـــا ضـــيفهُ أبشـــرْ فإنَّـــك غـــانمٌ أجـــرَ الصـــيام ولـــيس بالمـــكتوبِ
ولـو اسـتطاع لحَـبْطِ أجـرك حيلـة لاحتـــال فـــى ذاك احتيـــالَ أريـــبِ
وأراك ســـخَّاهُ بصـــومك علمُـــهُ أنْ لـيس صـومَ الكـره بالمحسـوبِ

إلى أن يقول:

لا تحسبنَّ علـى امـرئ فـى شـتمِهِ حُوبًا فما فى شتمهِ من حُوبِ([5])

---

[1] - د. نعمان محمد أمين: السخرية فى الأدب العربى، ص ٢٦١.
[2] - سورة طه، آية(٩٥).
[3] - سورة الأحزاب، آية(٣٧).
[4] - سورة الأحزاب، آية (٣٧).
[5] - ابن الرومى: الديوان، ج١، ص ١٩٧-١٩٨.

وواضح الاستدعاء من أكثر من آية فى القرآن الكريم، نحو قول الله:" وَمَن يَكْفُرْ بالإيمَانِ فقدْ حَبطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ"([1])، وقوله تعالى:"فأولـٰئِكَ حَبطتْ أعْمَالهُمْ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ"([2])، وقوله عز وجل: "لا إكْرَاهَ فِي الدِّين قد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغيِّ"([3])، وقوله سبحانه: "وَلا تأكُلوا أمْوَالهُمْ إلىٰ أمْوَالِكُمْ إنَّهُ كانَ حُوبًا كبيرًا"([4]).

وقد يملأ الغضب والحقد نفس ابن الرومى، التى جُبلت على ذلك، فلا تجعله يقف عند حد فى هجائه، فتصل المبالغة عنده إلى حد غير مقبول، بخوضه فى الأعراض، التى لا يرعى فيها حرمة ولا عقيدة ولا بشرا، ويسئ الأدب حتى مع الله-تنزه عن ذلك- فجل هدفه أن يوقع بمهجوه ويلصق به أشنع الصفات وأقبحها، فيفحش فى الطعن والتشهير، دون أن يأبه بالعواقب، ومن ذلك قوله فى الشاعر ابن الخبازة:

كلَ فحل أبوك عدلا من الله، وعيسى بلا أب كاليتيم

كثرتْ موبقاتُ بوران حتى ضاق عنها الغفورُ الرحيمَ([5])

أفحش ابن الرومى، حتى جاءت معانيه مبتذلة بذيئة، يأباها الذوق، وتمجها النفس البشرية السليمة، ووصل بنفسه فيها إلى قاع الدنس والرذيلة، حتى الله سبحانه لم يخافه، ولم يتقه، ويرجع طه حسين ميل ابن الرومى إلى ذلك الفحش فى مهاجيه إلى العوامل الثقافية أكثر من العوامل الوراثية - فمعروفة أصول ابن الرومى اليونانية- يقول:" وأنا أضيف تكوين عقل ابن الرومى إلى العوامل الثقافية الإسلامية، أكثر مما أضيفه إلى وراثته اليونانية، ومن المحقق أن اجتماع الثقافة إلى جانب تلك الوراثة، هو الذى كوَّن هذه الطبيعة الخاصة التى نجدها فى شعر ابن الرومى"([6])، والمعنى مستدعى من أكثر من آية من كتاب الله، نحو قول الله:" وَآتيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ"([7])، وقوله عز وجل:"

---

[1]- سورة المائدة، آية(٥).
[2]- سورة البقرة،آية(٢١٧).
[3]- سورة البقرة، آية(٢٥٦).
[4] - سورة النساء، آية(٢).
[5]- ابن الرومى: الديوان،ج٣، ص ٢٦١.
[6]- د. طه حسين: من حديث الشعر والنثر، ط/ دار المعارف، ص ١٤٠.
[7]- سورة: البقرة، آية(٨٧).

وَجَعَلنا ابْنَ مَرْيَمَ وَأمَّهُ آيَة وَآوَيْناهُمَا إلى رَبْوَةٍ ذاتِ قرَارٍ وَمَعِينٍ"([1])، وقولـه:" نبِّئ عِبادي أني أنا الغفورُ الرَّحيمَ"([2]).

وفى مقطوعة أخرى يصف ابن الرومى أحد بخلاء عصره، يسمى يعقوب البريدى- كما ورد فى الديوان- فيذكر أنه من بخله الشديد، وحرصه على طعامه، وتبجيله له صار معروفا للناس جميعا، فهو يحافظ علي رغيفه، ويصونه ولا يفرط فيه مهما حدث، وكأنه دينار مسكوك، بل هو أفضل من الدينار؛ لأن الرغيف مطبوع عليه"آية الكرسى"، لتكون له حافظة من أن يعتدى عليه أحد فيأكله، يقول فى ذلك:

أصبحَ يعقوبُ وتبجيلهُ للخُبزِ مَرئٌى ومسموعُ
رغيفهُ فى قدرِ دينارهِ بتلثُمُ السِّكةِ مَطبوعُ
بل آية الكرسىِّ مكتوبة فهو طِوال الدهر ممنوعُ([3])

صورة ساخرة قوية فى أن يظل الرغيف طوال الدهر باق لا يقربه أحد، فهو عليه من الله حافظ، والاستدعاء فى البيت الأخير كما هو واضح فى كلمة:(آية الكرسى).

وفى مقطوعة أخرى يرسم فيها ابن الرومى صورة هزلية مضحكة لأحد بخلاء عصره، يدعى ابن فراس، وقد أتاه أضياف صائمون، فطلب منهم أن يفطروا على رفث القول، لا على الطعام، يقول:

فهُم مُفطِرونَ وَلا يُطعَمون وّهُمّ صائمونَ وَهُمّ في أثام
فيَحْتالَ بُخلا لأنْ يُفطِروا عَلى رَفثِ القَوْل دون الطّعام([4])

وليس هذا بمستغرب منه، فالبخل طبيعة فيه، مجبول عليه، وابن الرومى يبالغ دائما، فهو "يجرى كعادته على تخطى المعانى"([5])، كما نلحظ السجع بين الكلمات(مفطرون – يطعمون – صائمون)، يزيد من جاذبية الأبيات، ووقع

---

[1]- سورة: المؤمنون، آية (٥٠).
[2]- سورة: الحجر، آية (٤٩).
[3]- ابن الرومى: الديوان، ج٢، ص ٣٥٢.
[4]- ديوان ابن الرومى، ج٣، ص ٢٨٠.
[5]- إيليا حاوى: ابن الرومى: فنه ونفسيته من خلال شعره، ط/ دار الكتب-لبنان، سنة ١٩٨٠، ص ١٢.

تأثيرها فى نفس المتلقى، وقد استدعى كلمة (رفث) من القرآن الكريم، ضمنها أبياته، وذلك من قول الله: " فلا رَفث وَلا فسُوقَ وَلا جدَالَ فِي الحَجِّ"([1]) .

وقال البغدادى أخبرنى محمد بن أحمد الجواليقىَّ فى كتابه إلىَّ أن بعض الشعراء قال فى رجل يسمى داود، وكان بخيلا، وقد وصفوه أنه جواد كريم، فقال الشاعر هذه الأبيات؛ إجلاء للحقيقة:

واصـــفَ داودَ بالنَّـــدى غَلِـــطٌ كراقِـــعِ الوشْـــى بـــالكرابيس
ثيـــابُ طبَّاخـــهِ إذا اتَّســـختْ أنقـــى بياضًـــا مـــن القـــراطيس
مطـــبخُ داودَ فـــى نظافـــتهِ أشـبهُ شـئ بصـرح بلقـيس([2])

يوضح الشاعر فى هذه الأبيات حقيقة أمر داود الذى نعت بالخطأ أنه سخى، فالحقيقة عكس ذلك، فهو أشد الناس بخلا، وأكثرهم تقتيرا، فثياب طباخه أنصع بياضا من الورق الأبيض؛ لأنه لا يخبز شيئا، وأن مطبخه أملس ناعم، وكأنه مصنوع من زجاج لنظافته، وعدم الطبخ فيه، فهو يشبهه بالصرح الذى دخلته بلقيس- وكان أملس نظيفا- عندما دخلت على سليمان النبى-عليه السلام- والاستدعاء من قول الله تعالى:" قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ"([3])

ومن الشعراء الذين عُرف عنهم الإكثار من التهكم والسخرية، الشاعر جحظة البرمكى([4])، وقد وردت له مقطعات كثيرة، تحمل هجاء لاذعا لبعض بخلاء عصره، ومن ذلك ما ورد فى كتاب البخلاء: أن محمد بن الشَّار دعا يوما جحظة البرمكى الشاعر إلى طعام، وكان ابن شار فيه بخل، فطال حبسه للطعام جدًا، فأخذ جحظة دواة ورقعة، وكتب عليها:

مـــــــالى وللشَّـــــــار وأولادهِ لا قـدِّس الوالـدُ والوالـدهْ
حَفِظـــوا القـــرْآنَ واسْـــتعْمَلوا مـا فيـه إلا سـورَة المائِـدَهْ

[1]- سورة البقرة، آية(١٩٧).
[2] - البغدادى: البخلاء، ص ٩٦-٩٧.
[3]- سورة النمل، آية(٤٤).
[4] - هو: أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكى، شاعر عباسى قبيح المنظر، ناتئ العينين، فسمى جحظة لذلك.

ثم ناولها لأحد الجلساء، الذى قرأها، وناولها لابن شار، فرأها، ووثب خجلا، فقدم الطعام، وكان بعد ذلك يجهد جهده فى أن يجيئه جحظة، فلا يفعل، ويقول: حتى يحفظ سورة المائدة([1]).

فالشاعر أراد أن يسخر من ابن شار وأولاده، وهم قرَّاءٌ وحفظة للقرآن، فأثنى عليهم أنهم من حافظى كتاب الله، بيد أنهم يتجنبون قراءة سورة المائدة، وحفظها؛ لأن اسمها يذكرهم بالمائدة التى يوضع عليها الطعام للأضياف، وهم بعداء عن ذلك كل البعد، والاستدعاء هنا اسم سورة المائدة، وهى السورة الخامسة فى القرآن الكريم.

وقد حدث أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانى أن جحظة أنشد لنفسه فى قوم بخلاء:

قلّ لقوم ما فيهمَ من رشيدِ ... لا، ولا فوقَ بخلهم من مزيدِ
لن تنالوا العلى بصحن قديدٍ ... وبنى ءٍ بنيتموهُ مشيدِ
إنما تدركُ المكارمَ بالصَّبـ ... ـر لهدم الحلوى، وأكل الثريدِ([2])

فهؤلاء القوم ما فيهم عاقل، ولا يماثلهم فى بخلهم أحد، وقد غفلوا أن أحدا لا ينال العلى إلا بالتصدق والانفاق من خير ماله، وترك الترف، وحمل النفس على ما تكره، بترك الشهوات، وهنا استدعى الشاعر لفظة "لن تنالوا" من قول الله تعالى:" لن تنالوا البرَّ حَتَّىٰ تُنفِقوا مِمَّا تُحِبُّونَ"([3]).

ومن التشبيهات الجميلة التى يسوقها أبونواس، قوله فى رجل بخيل يقال له إسماعيل:

على خبزِ إسماعيلَ واقية البخل ... فقد حلّ فى دار الأمان من الأكل
وما خبزهُ إلا كليب بن وائل ... ومن كان يحمى عزَّه منبتَ البقل
فإنَّ خبزَ إسماعيل حلّ به الذى ... أصاب كليبًا لم يكن ذاك من ذل
ولكن قضاءَ اللهِ ليس يسطاع ردَّه ... بحيلةِ ذى مكرٍ، ولافكر ذى عقل([4])

---

[1] - البغدادى، البخلاء، ص ١٧١.
[2] - البغدادى: البخلاء، ص ١٠٩- ١١٠.
[3] - سورة آل عمران، آية(٩٢).
[4] - أبو نواس: الديوان، ط/ صادر- بيروت، (د.ت)، ص ٥٢٦، والبغدادى: البخلاء، ص ١٨٥.

فخبزه محصّن لا تصل إليه يد، ولا يطمع أحد فى نواله، فهو فى مكان آمن من الأكل، وله حرمة كحرمة كليب بن وائل، سيد الأسياد، وحامى الفلوات، وهو تشبيه ساخر يشبه فيه أبونواس منعة خبز إسماعيل بمنعة كليب بن وائل، وأن له هيبة ومنعة مثله، ولكن فى النهاية غالته الغوائل، كما غالت قبله كليب فقتل، وهذا قضاء الله أن يؤكل خبز إسماعيل، ولم يستطع رده، بحيلة أو فكرة، فأصاب خبزه ما أصاب كليب، وقد استوحى أبو نواس ذلك من أكثر من آية من كتاب الله، منها على سبيل المثال، قول الله: " مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أنا بظَلَّام لِّلعَبِيدِ "([1])، وقوله عز وجل:"وَاللَّهُ يَحكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ"([2])، كذلك قوله سبحانه وتعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ"([3]).

أما دعبل فيرسم صورة مضحكة أخرى لأحد البخلاء، وقد يسر الله رزقه، فعنده ما لذ وطاب من المأكل والمشرب والفواكه، ولكن دون ذلك لمن يرجو منه عطاء، حبس وضرب وأبواب مغلقة، عليها حراس شداد غضاب، يشبهون ملائكة العذاب الغلاظ، لا يعصون له أمرا، ولا يسمحون بدخول أحد عليه، حتى ولو كانت ذبابة تمر مرًا، يقول:

وإنَّ لـــه لطبّاخًـــا وخـــبزًا وأنـــواعَ الفواكـــهِ والشَّـــرابِ
ولكـــن دونـــه حـــبسٌ وضـــربٌ وأبـــوابٌ تطـــابق دون بـــابِ
يـــزودونَ الـــذّبابَ يمـــرُّ عنـــهُ كأمثـــال الملائكـــةِ الغضـــابِ([4])

والصورة هنا لنوع آخر من البخلاء أقل خطرا، وهم هؤلاء الذين يوسعون على أنفسهم، ويضيقون على عباد الله، ولا يأتوهم حقهم من مال الله الذى آتاهم، وهؤلاء وأمثالهم لا علاج لهم سوى ألسنة الشعراء الحداد، فهى خير علاج لهم، والاستدعاء هنا واضح من قول الله تعالى:"عَلَيْهَا مَلائِكَة غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"([5]).

****

[1] - سورة ق، آية(٢٢).
[2] - سورة الرعد، آية(٤١).
[3] - سورة يس، آية(٨٢).
[4] - دعبل: الديوان، ص ١٥٢.
[5] - سورة التحريم، آية(٦).

المبحث الثانى: الاستدعاء غير المباشر من القرآن الكريم:

وهو استدعاء المعنى، ويمكن أن نسميه الاستدعاء اللاشعورى الذى لا يحرص الشاعر على حضوره مباشرة، لذا يتطلب هذا الاستدعاء من القارئ سعة ثقافة وإطلاع، حتى يستطيع فهم النص وتحليله واكتشافه، وهذه الاستدعاءات "مهما تسترتْ واختفتْ فلا تخفى على القارئ المطلع، الذى بإمكانه إعادتها إلى مصادرها"([1])، خاصة الاستدعاءات القرآنية، فهى ذات ملمح خاص لا يخفى على أحد، وقد أشار المبرد إلى الاستدعاء غير المباشر فى كتابه الكامل إلى قول أبى العتاهية:

وقد يهلكُ الإنسانُ من باب أمنهِ وينجوُ لعمرُ اللهِ من حيث يحذرُ

فأبوالعتاهية قد أخذه من قول الله تعالى:" وَعَسَىٰ أن تكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خيْرٌ لَّكُمْ"،([2]).

ففى بعض الأحيان يستلهم الشاعر معنى من معانى القرآن الكريم، دون أن يصرح بالآية أو الكلمة، ونجد أمثلة كثيرة من هذا القبيل، سيما معانى الآيات التى تتحدث عن حتمية الرزق، وأن كل شئ مقسوم ومقدر، أو عن معانى الآيات التى تحث على الجود والعطاء، وتجنب البخل والشح، ودائما ما يطمئن الشاعرُ البخيلَ بأن الله سوف يعوضه أضعاف ما ينفق، وفيها ينقلب الشاعر واعظا للبخيل، يعظه ويحثه على الجود والإنفاق، إما لأنه يئس من عطائه، فيحاول أن يستعطفه بالدين، وإما لأنه رأى فيه خيرا لن يتأتى له إلا من طريق الوعظ، فيسلك معه هذا المسلك، ومن هؤلاء الشعراء الذين سلكوا طريق الوعظ والإرشاد بشار بن برد، وهو معروف بزندقته، لكننا أحيانا نجده واعظا يدعو إلى الإنفاق ، ويذكر أن البخل منبوذ، وأن المال ليس بنافع، مالم يُعط منه الأخ والصديق، ويضرب مثالا على ذلك نفسه، فقد كان منفقا جوادا، لا يرضى بعيشة البخلاء، ولم يشتك من بخله أحد، وهى دعوة للتنفير من البخل، الذى يبدو أنه أصبح ديدنا لكثير من أغنياء عصره.

---

[1] - محمد عزام: النص الغائب، تجليات التناص فى الشعر العربى، ط/ اتحاد الكتاب العرب- دمشق، سنة ٢٠٠١، ص ٣٢.

[2] - أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: الكامل فى اللغة والأدب، ت: محمد أحمد الدالى، ط/ مؤسسة الرسالة- بيروت، سنة ١٩٨٦، ج١، ص٤٢٠.

وفى ذلك يقول:

خلِيَلـــيّ إنَّ العُسْـــرَ سَـــوْف يَفيـــقُ وَإنَّ يَســـارا فـــي غـــدٍ لخـــليقُ
لقـدْ كنـتُ لا أرْضـى بـأدنى مَعيشـة وَلا يَشْـتكي بُخـلا عَلـيَّ رَفيـقُ
خلِيَلـــيّ إنّ المـــالَ لـــيْسَ بنافـــع إذا لـمّ يَنـلّ مِنـهُ أخٌ وَصَـديق([1])

فالعسر سيذهب، وسينقلب غدا ـحتماـ إلى يسر، والمال لا قيمة له بدون التصدق والعطاء، ولن ينفع صاحبه يوم القيامة إلا ببذله، وهو معنى مستلهم من كل الآيات التى يدعو فيها الله إلى حلول اليسر بعد العسر، وإلى الجود والعطاء، وبذل الصدقة من الأموال، ونبذ البخل والشح، كقوله تعالى:" فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا، إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا"([2])، وقوله عز وجل:" لن تنالوا البرَّ حَتَّىٰ تُنفِقوا مِمَّا تُحِبُّونَ"([3])، وقوله:" وَأنفِقوا فِي سَبيلِ اللَّـهِ وَلا تُلقوا بأيْدِيكُمْ إلى التَّهْلكةِ"([4])، وقوله سبحانه: "يَوْمَ لا يَنفعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ"([5]).

وفى بيت آخر يرتدى فيه بشار بن برد ثوب الواعظين-أيضاـ وبنفس منهج الدعوة إلى الإنفاق والجود، ينصح بذلك حتى لا يصبح كنز المال مصدر شقاء العبد يوم القيامة، يقول:

أنفِـقِ المـالَ وَلا تشْـق بـهِ خيْـرُ دينارَيْـكَ دينـارٌ نفـقْ([6])

حث مباشر، وتذكير واضح، ووعد صادق من الله للمنفقين فى سبيله بالتعويض، وقد استدعى بشار المعنى من قول الله تعالى:"وَالَّذينَ يَكنِزونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلا يُنفِقونها في سَبيلِ اللَّـهِ فَبَشِّرهُم بِعَذابٍ أليم، يَومَ يُحمى عَليها في نارِ جَهَنَّمَ فتُكوى بها جِباهُهُم وَجُنوبُهُم وَظهورُهُم هـذا ما كنزتُم لِأنفُسِكُم فذوقوا ما كُنتُم تكنِزونَ"([7]) ، ومن قوله تعالى:" وَمَا أنفقتُم مِّن شَيْءٍ فهُوَ يُخلِفُهُ وَهُوَ خيْرُ الرَّازِقِين"([8])، وقريبا من هذا المعنى، يحث جحظة على الإنفاق، حيث يقول:

---

[1] - بشار: الديوان، ج٤، ص ١١٣.
[2] - سورة الشرح، آية(٥-٦).
[3] - سورة آل عمران، آية(٩٢).
[4] - سورة البقرة، آية(١٩٥).
[5] - سورة الشعراء، آية(٨٨).
[6] - بشار: الديوان، ج٤، ص ١١٦.
[7] - سورة التوبة ، آية(٣٤).
[8] - سورة سبأ، آية(٣٩).

أنفقْ ولا تخْش إقلالا فقدْ قسمتْ بينَ العبادِ معَ الآجال أرزاقُ([1])

وكذلك ديك الجن يتبع نفس المنهج، فى قوله:

يا ذا الغنى مالكَ منْ غنىً وكذاكَ يا ذا المال مالكَ مالُ

أطلقْ يديكَ فإنَّ بينَ يديكَ ما يرْديهما ووراءَ حالكَ حالُ([2])

والأبيات جميعها مستوحاه من نفس الآيات السابقة، وكل هذه دعوات من الشعراء؛ لمعالجة تفشى قضية البخل فى عصرهم، فهم كما شهروا أسلحتهم الحادة، جربوا اللين مع هؤلاء البخلاء، عسى أن ينفع معهم.

وقد تطغى معانى القرآن الكريم على دعبل الخزاعى أيضا، فيستدعيها، ناسجا منها أبياتا مليئة بالحكمة والعظة، لكنها لا تخلو من أسلوبه الساخر، فقد مزج بين الوعظ والتذكير، والسخرية والهجاء، من بخل المطلب بن عبدالله بن مالك الخزاعى، وكان كثير المال، لكنه شديد البخل، فيخاطبه قائلا: إن ما كسبته من مال وفير، لا عن جهد بذلته، ولا عن ذكاء وفطنة منك، فلو كان الرزق كذلك، أو خص الله به أحدا دون غيره، ما نلت شيئًا ذا قيمة، ولو كان بالحيلة والدربة، ما حزت حتى ولو كف تراب، لكن الرزق من الله الرزاق، يبسطه، فيعم به جميع خلقه، حتى الكلاب لا يحجب الله عنها رزقه، واختار الكلب دون غيره؛ تقليلا من شأن مهجوه، وتحقيرا له، وكأنه أقل منزلة من الكلاب التى لا يمنع الله عنها رزقه، ثم معروف مدى حرص الكلاب على الطعام، يقول فى ذلك:

وما المالُ جاءكَ من مَغنم ولا من ذكاءٍ ولا كِسْبهْ

فلو خُصَّ بالرزقِ نجْلُ الكرا م لما نلتَ خيطا ولا هُدْبهْ

ولو رُزقَ الناسُ عن حيلةٍ لما نلتَ كفّاً من التربة

ولكنَّه رزقُ مَنْ رِزْقهُ يَعُمَّ بهِ الكلب والكلبهْ([3])

أبيات تحمل وعظا وهجاء مضحكا، خص به المطلب بن عبدالله، والاستدعاء القرآنى فى هذه الأبيات جاء من أكثر من آية من كتاب الله، فمعلوم أن آيات الرزق فى القرآن الكريم كثيرة، وكلها تحمل ضمانة أن الرزق من الله،

---

[1] - البغدادى: البخلاء، ص ٢١٩.

[2] - عبدالسلام بن رغبان"ديك الجن": الديوان، ت: مظهر الحجّى،ط/ اتحاد الكتاب العربى- دمشق، سنة ٢٠٠٤، ص ١٩٣.

[3] - دعبل: الديوان: ص ٢٦.

وأن الله كفله لعباده، فلا نخشى من ذلك، ولا نحتال فى الحصول عليه، ومن هذه الآيات قول الله تعالى:"وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"([1])، وقوله سبحانه:" أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ"([2])، وقوله عز وجل:" وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ"([3])، كذلك قوله تعال:"قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ"([4]).

أما شاعر نا البُستى فقد عودنا على طهارة لسانه، وتجنبه الفحش من القول، وتجنبه حتى التصريح باسم مهجوه البخيل، فكل أبياته تلميحا فقط، وفى بيتين يعظ فيهما صاحبه الذى يجمع المال، ولا ينفق منه شيئا، ولعفة لسانه يخبر أن صاحبه لا يجمع ماله إلا من حلال، على الرغم من أن نمط معظم الذين يكنزون المال معروف، فهم لا يتورعون فى جمعه، لكن صاحبه كان يتحرى الحلال فى جمع ماله، لكنه لا ينفق منه شيئا، يقول:

أيا جامعَ المال من حلّه تبيتُ وتصبحُ فى ظلّه
سيؤخذ منكَ غدًا كلّه وتسألُ من بعد عن كلّه([5])

والسجع والتقسيم واضحان هنا بنغمهما الموسيقى الأخّاذ، والبيتان لا يصلحان إلا لـ لغناء والتلحين، فالكلمات:(حلّه، ظلّه، كلّه، كلّه)، لا يخفى أثرهما الموسيقى فى النفس، وقد عمد الشاعر إلى ذلك عمدا؛ لتصل أبياته إلى العامة من الناس، ويتساءلون عن ذلك البخيل الذى كف الشاعر عن ذكره، والمعنى مستدعى من معنى الآية الكريمة: " وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ ....."([6]).

ومن الشعراء الذين حاربوا الأمراض الاجتماعية المتفشية فى العصر العباسى، أبو العلاء المعرى، فما كان يخشى أحدا فى توجيه سهام نقده لمحاربة أمراض مجتمعه، وصولا إلى عالم أفضل، "فهذا العالم الذى يرسمه خير لا شك فيه، وصلاح ليس فيه ذرة من فساد، وتعاون على الخير، وسير على

[1] - سورة البقرة، آية(٢١٢).
[2] - سورة الزمر، آية (٥٢).
[3] - سورة العنكبوت، آية (٦٠).
[4] - سورة سبأ، آية(٢٤).
[5] - البستى: الديوان، ص ١٦٣.
[6] - سورة التوبة، آية (٣٤).

الجادة([1])"، والبخل عند أبى العلاء المعرى من أقبح الرذائل، وأشدها وقعا على النفس، فهو يمنع الخير عن الفقراء والمحتاجين، وما يؤلم نفسه أن زمانه هذا زمان بخل وفقر، فهو يرى أن الغنى نادر كالجود، والبخل شائع شيوع الفقر، يقول:

إن الغنى لعزيزٌ حين تطلبُهُ والفقرُ فى عنصر التركيب موجودُ
والشحَّ ليس غريبا عند أنفسنا بل الغريبُ وإن لم يُرحم الجودُ([2])

فالنفس البشرية قد جُبلت على الشح، فهو ليس بغريب عنها، بل الغريب، أن يتصدق المرء ويجود، فى زمن شاع فيه البخل والفقر، والمعنى مستلهم من قول الله تعالى فى وصف النفس البشرية فى انطباعها على الحرص والبخل:"إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا"([3])، ومن قول الله أيضا:" وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ"([4])، ومن قوله تعالى:" وَتُحِبُّونَ المَالَ المَالَ حُبًّا جَمًّا"([5]).

وشاعرنا المعرى لا يأسره المال على الإطلاق، على الرغم من تعدد أسراه من الناس، ولا من الذين يكنزون الذهب والفضة، فخير ربح يحصل عليه، إنما هى تقوى الله، فلا يحب شاعرنا أن يكون من الخاسرين بحبه للمال، وكنزه إياه، وفى ذلك يقول:

مَن كان من أسراه مالٌ له فلستَ للمال من الآسرينْ
أعد أثنى الربح فعلَ التُقى فلا أكُنْ ربِّ من الخاسرين([6])

وتكرار حرف السين فى البيتين زادهما جاذبية، ليكون وقعهما على النفس فعالا، والمعنى مستدعى من قول الله تعالى:" وَإِلا تغفِر لي وَترحَمني أكُن مِنَ

---

[1] - يسرى سلامة: النقد الاجتماعى فى آثار أبى العلاء المعرى، ط/ دار المعرفة- الإسكندرية، (د.ت)، ص ٢٥٩.
[2] - أبو العلاء المعرى: لزوم ما لا يلزم، ط/ صادر – بيروت (د.ت)، ص١١٩.
[3] - سورة المعارج، آية(١٩-٢١).
[4] - سورة النساء، آية(١٢٨).
[5] - سورة الفجر، آية(٢٠).
[6] - أبوالعلاء المعرى: لزوم ما لا يلزم، ص ٥٨٧.

الخاسِرينَ"([1])، وقولـه تعـالى:" وَأنفِقـوا فِـي سَـبيل اللّـهِ وَلا تُلقـوا بأيْـدِيكُمْ إلـى التَّهْلكةِ"([2]) .

والإمام الشافعى- رضى الله عنه- وصف لنا البخيل فى بيتين، صارا مثلا فى وصف البخلاء، وتغنى بهما الركبان، فهو ينصح الناس باجتناب البخلاء، وقطع الرجاء فيهم، والنفع منهم، وكأنه يتحدث عن تجربة، يقول:

ولا تـرجُ السَّـماحة مـنْ بخيـل فمـا فـى النَّـار للظمـآن مـاءُ
ورزْقـكَ لـيسَ ينقصُـهُ التَّانـى ولـيسَ يزيدُ فـى الـرزق العنـاءُ([3])

فالبخيل لافضل منه ولا سماحة فيه، فهو كالنار الحارقة، فلا أحد يطلب الماء من النار، فليكن المرء رضى النفس، عفيفها، فالرزق محتوم ومقدر، ولا يزيد بالجد، أو ينقص بالتقاعس عن طلبه، ، والمعنى مستوحى من قول الله تعالى: " قُلْ إنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لـهُ"([4])، وقولـه سبحانه:" وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ"([5])، وغيره من الآيات التى تؤكد أن الرزق حتمى من الله تعالى.

****

الخاتمة:

وبذلك تكون الدراسة قد وصلت إلى نهايتها، وخلصت إلى بعض النتائج، التى أرجو أن يكون فيها النفع- بإذن الله تعالى- وهى كالتالى:

١- انتشر شعر البخل فى العصر العباسى نتيجة تعقد الحياة الاجتماعية، وما يتطلب ذلك من وفرة المال، والحرص على جمعه، ثم تعدد الأحزاب السياسية، ونشأة الخلافات بينها، ونشوء الطبقات، خاصة طبقة التجار والأثرياء، ومعروف حرص هؤلاء على الأموال، مع ضعف الوازع الدينى، واتساع أوقات الفراغ، وقد دفع كل ذلك الشعراء إلى التندر بأمراض المجتمع، والسخرية منها.

---

[1] - سورة هود، آية(٤٧).
[2] - سورة البقرة، آية(١٩٥).
[3] - الشافعى: الديوان، ت: محمد عفيفى الزغبى، ط/ دار الجيل-بيروت، سنة ١٩٨٦، ص ١٥.
[4] - سورة سبأ، آية(٣٩).
[5] - سورة الذاريات، آية(٢٢).

٢- وظف الشعراء العباسيون الاستدعاء القرآنى فى شعر البخل توظيفا قويا، مما أضفى على أبياتهم طابع القوة، وقد تنوع هذا الاستدعاء ما بين استدعاء مباشر وغير مباشر.

٣- الاستدعاء القرآنى يمد القصيدة بالتكثيف الدلالى داخل السياق، ويعزز بناء الرؤى الشعرية، كما يفجر لدى الشعراء طاقات إبداعية جديدة يبنى بها نصه.

٤- تميز شعر البخل بالتصوير الهزلى، والمبالغة فى وصف البخلاء وصفاتهم، مع استقصاء المعانى، والإكثار من التشبيهات التى تحقر من البخلاء، والغلو فيها أحيانا إلى درجة الإغراق.

٥- غلب على شعر البخل المقطعات الصغيرة، سهلة اللغة والأسلوب وتضمينها بعض الكلمات الدارجة، مع تجنب غموض اللفظ، حتى يسهل حفظها وانتشارها بين العامة، ومقصده من كل ذلك الكشف عن حقائق ووقائع زائفة تتستر خلفها شخصية البخيل.

٦- ميل بعض الشعراء كبشار وأبى نواس وابن الرومى إلى إظهار قدراتهم اللغوية فى توليد المعانى، ورسم صورة البخيل بطريقة جعلت من شعر البخل فنًا راقيًا.

٧- كشفت الدراسة عن قدرة الشعراء العباسيين على الإلمام بنفسية البخيل، وما يعتريه من دخائل وتغيرات نفسية تنتابه عند اضطراره إلى الإطعام، والقدرة على وصف تلك التغيرات والحركات التى تنتابه بطريقة فائقة.

٨- عبر بعض الشعراء فى شعر البخل عن أفكارهم بطريقة السرد القصصى، مما يسهم فى جذب القارئ، وتشويقه لمعرفة ما يحدث.

٩- مال بعض الشعراء العباسيين فى شعر البخل إلى استخدام الأوزان الخفيفة والمهملة، والتى تصلح للغناء، مع الميل إلى استخدام المحسنات البديعية؛ لجعل صورة البخيل أكثر وضوحا وانتشارا.

١٠ - لبس بعض الشعراء ثوب الواعظين فى حديثهم عن البخل والبخلاء، وقد سلكوا هذه الطريقة مع البخلاء علّه يكون سببا فى حثهم على الجود.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- ابن حجة الحموى: خزانة الأدب وغاية الأرب، ت: عصام شعيتو، ط/ دار ومكتبة الهلال، سنة ١٩٨٧.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت: د. إحسان عباس، ط/ دار صادر- بيروت، سنة ١٩٧١.
- ابن رشيق القيروانى: العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت: محمد محيى الدين عبدالحميد، ط/ دار الجيل- بيروت، سنة ١٩٧٢.
- ابن الرومى: الديوان، شرح: أحمد حسن بسج، ط/ دار الكتب العلمية- بيروت، (د.ت).
- أبوتمام: الديوان بشرح الخطيب التبريزى، قدم له: راجى الأسمر، ط٢/ دار الكتاب العربى، بيروت، سنة ١٩٩٤.
- أبوالشمقمق: الديوان، تحقيق: واضح محمد الصمد، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، سنة ١٩٩٥م.
- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: الكامل فى اللغة والأدب، ت: محمد أحمد الدالى، ط/ مؤسسة الرسالة- بيروت، سنة ١٩٨٦.
- أبوالعلاء المعرى: لزوم ما لا يلزم، ط/ صادر- بيروت، سنة ١٩٦١.
- أبوالفتح البستى: الديوان، ت: لطفى الصقال و درية الخطيب، ط/ مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق، سنة ١٩٨٩م.
- أبونواس: الديوان، ط/ صادر- بيروت،(د.ت).
- إيليا حاوى: ابن الرومى: فنه ونفسيته من خلال شعره، ط/ دار الكتب-لبنان، سنة ١٩٨٠.
- بشار بن برد: الديوان، تحقيق وتعليق: محمد الطاهر بن عاشور، ط/ وزارة الثقافة – الجزائر، سنة ٢٠٠٧م.
- الثعالبى: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، ت: محمد إبراهيم، ط/دار المعارف، سنة ١٩٨٥.
- الجاحظ: البخلاء، ت: د. طه الحاجرى، ط٥/ دار المعارف، (د.ت).

- د.جمعة حسين يوسف: المضامين التراثية فى الشعر الأندلسى فى عهد المرابطين والموحدين، ط/ دار الصفاء- عمان، سنة ٢٠١٢.
- د.حامد طاهر: ظاهرة البخل عند الجاحظ "دراسة نصية"، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، السنة الخامسة، العدد التاسع، سنة ٢٠٠٩م.
- الحصرى: زهر الآداب وثمر الألباب، ت: زكى مبارك، ط/ دار الجيل- بيروت،(د.ت).
- الحطيئة: الديوان، ت: مهدى ناصر، ط٢/ دار الكتب العلمية- بيروت، سنة ١٩٩٤.
- الخطيب البغدادى: البخلاء، ت: بسام عبدالوهاب الجابى، ط١/ دار ابن حزم- بيروت، سنة ٢٠٠٠م.
- دعبل الخزاعى: الديوان، شرح وتعليق: حسن حمد، ط/ دار الكتاب العربى، (د. ت).
- السيوطى: عقود الجمان فى المعانى والبيان، ط٢/ مطبعة البابى الحلبى- القاهرة، (د.ت).
- الشافعى: الديوان، ت: محمد عفيفى الزغبى، ط/ دار الجيل-بيروت، سنة ١٩٨٦.
- د.شوقى ضيف: فصول فى الشعر ونقده، ط٢/ دار المعارف .
- د. طه حسين: من حديث الشعر والنثر، ط/ دار المعارف .
- عبد الرحيم بن أحمد العباسى: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ت: محمد محيى الدين عبدالحميد، ط/ عالم الكتب- بيروت(د.ت)، ج٤.
- عبدالسلام بن رغبان"ديك الجن": الديوان، ت: مظهر الحجّى، ط/ اتحاد الكتاب العربى- دمشق، سنة ٢٠٠٤.
- عبدالقاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ت: محمد محمود شاكر، ط٢/ مكتبة الخانجى- القاهرة، (د.ت).
- د.عبدالمنعم خفاجى: الأدب العربى وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى، ط/ دار الجيل-بيروت، سنة ١٩٩٠.
- على بن عبدالعزيز الجرجانى: الوساطة بين المتنبى وخصومه، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم، على محمد البجاوى، ط/ دار القلم- بيروت، (د.ت).

- على عشرى زايد: استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر، ط/ دار غريب- القاهرة، سنة ٢٠٠٥.
- محمد الجعافرة: التناص والتلقى دراسات فى الشعر العباسى، ط/الأردن، سنة ٢٠٠٣ .
- محمد حسين: الهجاء والهجَّاءون فى العصر الجاهلى، ط/ دار النهضة العربية – بيروت، سنة ١٩٩٩.
- د.محمد زكى العشماوى: موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى، ط/ دار النهضة العربية – بيروت، سنة ١٩٨١.
- محمد الزواهرة: التناص فى الشعر العربى المعاصر، ط/ عمان، سنة ٢٠٠٠.
- د. محمد عبدالمطلب: جدلية الإفراد والتركيب فى النقد العربى القديم، ط/ لونجمان – القاهرة، سنة ١٩٩٥.
- محمد عزام: النص الغائب، تجليات التناص فى الشعر العربى، ط/ اتحاد الكتاب العرب- دمشق، سنة ٢٠٠١.
- د.مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء فى العصر العباسى،ط/ دار العلم للملايين- بيروت، سنة ١٩٩٣.
- د. نعمان محمد أمين: السخرية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، ط/ دار التوفيقية- القاهرة، (د.ت) .
- يسرى سلامة: النقد الاجتماعى فى آثار أبى العلاء المعرى، ط/ دار المعرفة- الإسكندرية، (د.ت).